الطبعة 2

رواية

أحمد مجدي همّام

الوصفة رقم ٧



الدار المصرية اللبنانية


رواية
أحمد مجدي همّام
الوصفة رقم
7

إلى

حسين الإمام، أحمد زكي، خيري بشارة

«قد يبرِّر عنوان هذا الكتاب اشتماله على الأمير هاملت، والنقطة، والخط، والمسطّح والمكعّب المضاعف وجميع المصطلحات ذات الصلة بالنوع، وربما كل واحد منّا، نحن، بالإضافة إلى الألوهية؛ أي، بالاختصار، قد يبرّر اشتماله على الكون بأسره تقريبًا. ومع ذلك فقد قصرنا فيه اهتمامنا على ما توحي به، مباشرة، عبارة الكائنات الوهمية، فصنّفنا ثَبَتًا بالكائنات الغريبة التي ابتدعتها أمزجة البشر عبر الزمان والمكان».

من مقدمة الطبعة الثانية لـ «كتاب المخلوقات الوهمية»
خورخي لويس بورخيس ومارجريتا جورّيرو

البِــذْرَة

-1-

الرجـل الفلبّيني الذي اسـمه رودريجـو دوتيرتي فعل الأمر نفسـه فـي بلاده. المجرم، عديم الإنسـانية، قتل في شـهر واحد، ثلاثة آلاف من تجّار المخدّرات، وترك سـكّان السبعة آلاف ومائة وسبعة جزيرة غارقيـن فـي الواقـع الكئيب، بـلا حقنة واحدة، بلا سـيجارة حشـيش واحدة، بلا سـطر هيروين واحد.. بلا أي شـيء. وهذا أيضًا ما حدث، هنـا، في الحارة الشـعبية التي يعيش فيهـا مليجي، في مدينتـه الكئيبة، الواقعة في أحد أقاليم بلاده الرمادية.

قبل ثلاثة أشهر فقط، كانت الأمور تمضي بشكل جيّد، المروّجون كانـوا علـى النواصـي. الصيادلـة أيضًـا كانـوا كرمـاء مـع المدمنيـن، والخمّـارات كانـت تقفـل أبوابهـا بعـد رحيـل آخـر زبون ثمـل قرب السـابعة صباحًا. كانت الحياة طيّبة، وسـهلة، والمخـدّرات والكيوف والكحوليات والأمزجة منتشـرة بوفرة، الجميع كانوا ينامون مسـاطيل وسـكارى ومبسـوطين، الجميع يطلقون النّكات البذيئـة على الرئيس والحكومة، ويسـخرون من الفقر الذي يعيشـون فيـه، إلا أنهم ينامون سـعداء، وجوعى، والأهم من ذلك، منتشـين، بأدمغة عامرة، وسـعادة

تسري في شرايينهم وأجهزتهم العصبية ورئاتهم، سعادة عاش فيها سكان البلاد طويلًا، وعلى مدار سنوات حُكم الرئيس الأب المؤسس، كانت المعادلة الدائمة هي: وضع اقتصادي منحدر، ووضع مزاجي مزدهر.

لكن دوام الحال من المحال، لأن الرئيس الأب المؤسس إنسان، مات مثل غيره من البشر، مات وترك الشعب يتيمًا من بعده، ومنذ ثلاثة أشهر، تولّى الحكم هذا الرجل الصارم المتجهّم عاقد الحاجبين، ومنذ ثلاثة أشهر أيضًا، والبلاد تنام وتصحو بلا حقنة واحدة، بلا سيجارة حشيش واحدة، بلا سطر هيروين واحد.

صرخات المدمنين باتت مسموعة في كل بيت، كانوا يثيرون الشفقة في الشوارع، عندما تدهمهم النوبات فيتلوّون أو يتشنّجون كالمصروعين. أما مدمنو الخمر (الخمورجيّة) فاشتغلوا في سرّية تامّة على تصنيع مشروباتهم منزليًا، من البلح والتين والرمّان والتوت البرّي والأعناب، وكان حالهم أفضل نسبيًّا من المدمنين والمدخنين (الدخاخنيّة). رمت الأوضاع الجديدة بظلالها على الجميع، وأفلس السواد الأعظم من مروّجي المخدرات، والكثيرون منهم غيّروا صنعتهم، وتفشّت ظاهرة الانتحار بين المدمنين والتجّار على حدٍّ سواء، وساهمت كل تلك الظروف في فرض وضع اقتصادي قاسٍ على المدينة، فلم يعد النجّارون ينتجون قطع أثاث مميزة، وفقد الحلّاقون مهاراتهم وخفة أيديهم التي باتت ترتعش بسبب غياب

الكيف، وفَضَّل ممثلو المسرح والفنانون الانزواء، بعد أن امتنع الجمهور عن الحضور، والمؤلفون عن التأليف، وعمّال المسرح عن مباشرة أعمالهم، بسبب الوضع الاقتصادي المتردّي. أمّا المزارعون الذين كانوا يستعينون بالقات والأفيون والنسوار والحبّات الكيميائية لمضاعفة مجهوداتهم، ليفلحوا مساحات واسعة من الأرض، فقد وجدوا أنفسهم فجأة وقد جُرِّدوا من أهم أسلحتهم لمجابهة الشمس الحارقة في سماء البلاد، ولم يعد الواحد منهم قادرًا على فلاحة أرضه أو جني الحصاد في المواسم، وباتوا لا يجدون في أنفسهم رغبة لينشدوا أهازيجهم في نهارات عملهم في الغيطان والحقول. فبارت الأراضي، وانتشر التصحّر والآفات الزراعية في المحاصيل. بالمثل، انتشرت حالات الطلاق، وجرائم القتل والسرقة وحوادث الطرق، كما انخفض معدّل المواليد، بسبب شح الأفيون والحبوب الكيميائية التي كانت تشحذ همم الرجال.

وكان من الطبيعي أن تنبثق تجارة سرّية بسبب سيطرة الشرطة على مقدّرات المخدّرات في البلاد، وخاصة الضباط من أصحاب الرتب الكبيرة والنياشين الوفيرة، وبدأ استهلاك الكيوف يقتصر على أبناء العائلات العريقة والثرية، هؤلاء فقط مَن يحظون بالمزاج. أصبح تعمير الرأس حلمًا بعيد المنال على العامة، فتبدّلت الأمزجة، وكلحت الوجوه، وتغيّرت الطباع، وهاج الناس وماجوا، وانتشرت الشعارات المندّدة بالرئيس على جدران المباني الحكومية، وامتنع الفلاحون عن سداد الضرائب، بينما بدأ البدو والغجر في العودة تدريجيًا إلى طبعهم

القديم بالتجوّل في البلاد، بعد أن كانوا استقروا لسنوات عند ضواحي المدينة، وعملوا في التهريب والترويج.

هكذا كان الوضع في ذاك العام، فوضى عارمة، الخراب يفرد جناحيه على البلاد والعباد، الأمزجة متكدِّرة والجيوب خاوية، نستطيع أن نقول بيقين، إنه لا أحد في طول البلاد وعرضها لم يتأثر بمجريات الأمور، إلا رجلًا واحدًا فقط.

اسمه مليجي الصغير..

-2-

جرعات قليلة ومنتظمة، كانت تصل إلى مليجي الصغير، عن طريق أحد أقربائه. ضابط برتبة نقيب في إدارة مكافحة المخدّرات، كان هذا النقيب يمد مليجي من حين لآخر ببعض الجرعات المتنوّعة، من المصادرات التي يضع يده عليها، قبل أن يتم اكتشاف أمره، ونقله إلى مدينة حدودية مهمّشة ومنسية كعقاب على سقطته تلك.

لمدة يومين، حزن مليجي على الأذى الذي تسبب فيه لابن عمومته، لكنه في اليوم الثالث، استيقظ وهو لا يلوي على شيء، ويشعر بهرش قوي يجتاح جسده، كانت تلك المرة الأولى منذ بداية الأزمة، التي يجد فيها مليجي الصغير نفسه عالقًا في الواقع الممل، شابًا جامعيًا عاطلًا لا يفعل شيئًا في حياته، سوى تناول الكيوف المختلفة طوال اليوم، والجلوس على المقهى نهارًا مع بعض العاطلين البؤساء، ومواصلة تجاربه المعملية ليلًا.

على عكس الكثيرين، أراد مليجي أن يدخل إلى كلية العلوم، وكان والده الرسّام وتاجر الأنتيكات واللوحات يضغط عليه ليصبح رسّامًا،

فأجبره على الالتحاق بكلية الفنون، وضغط عليه ليكفّ عن قراءة المجلات العلمية، وكانت النتيجة أن مليجي لم يصبح هذا ولا ذاك. تخرّج في كليته بعد سنوات طويلة من المعافرة والفشل والوساطات. وبالمثل لم يصبح عالمًا، مليجي بقي معلقًا بين العالمين، ولم يصبح أي شيء.

حاول في بداية حياته العمليّة أن يعمل مع والده في تجارة التحف والأنتيكات، إلا أنه سرعان ما ملّ من الأرقام والدفاتر والحسابات، وقرر أن يجرّب حظه في العمل بإحدى الصيدليات، لكنه طُرِد سريعًا بعد أن تسببت سيجارة بانجو في عدة هفوات، إذ وزّع أدوية خاطئة للمرضى، فأعطى أحدهم كريم الحلاقة على أنه مرهم لعلاج الالتهابات الشرجية، وأعطى حبوب منع الحمل لآخر بوصفها مسكّنًا قويًّا لآلام الأسنان. تراكمت الأخطاء في السجل المهني لمليجي، مثلما تراكمت الكيوف وترسّبت في رأسه وعروقه، وكانت النتيجة أنْ وجد نفسه عاطلًا، لا يريد العودة للعمل في التجارة مع والده، ولا يستطيع العمل في أي صيدلية أو معمل بعدما ذاع صيته وعُرِف عنه أنه غير كفؤ.

لذا، لجأ مليجي لوالده ميسور الحال، وبدأ يسحب منه مبالغ مالية على فترات متقاربة، وأسس في غرفة زائدة في البيت معملًا،

يجري فيه تجارب غير ذات قيمة على الفئران والصراصير والعصافير، ويدوّن نتائج أبحاثه في دفاتر صغيرة يخبئها طوال الوقت، كأنما يخفي سرًّا حربيًا. حتى بعدما مات أبوه بأزمة قلبية، ظل مليجي الصغير يخبئ تلك الدفاتر، رغم أنه صار يعيش وحيدًا في تلك الشقة الواسعة، ولا يستعمل منها سوى غرفتين: واحدة للنوم والقراءة، وأخرى للمعمل الصغير. وعلى هذا النحو مضت سنواته، متسكّعًا على المقاهي في النهار مع مجموعة من أصدقائه المدمنين والمروّجين، وساهرًا في معمله ليلًا، يجري أبحاثًا مبهمة، لم تُفضِ إلى أي نتائج.

بعد الأزمة، وجد مليجي نفسه وجهًا لوجه أمام شبح خواء الدماغ، مع نقل قريبه الضابط، أيقن أنه، دون شك، انضم إلى بقية أفراد الشعب في محنتهم، وأنه صار مثل الجميع، مجرّد مواطن معزول عن ثقافته التي تربّى عليها، رجل بلا رأس، رجل يمتلك ميراثًا يضمن له حياة ميسورة، لكنه لا يضمن له السعادة والانتشاء والتحليق في سماوات أخرى، رجل بلا أهل، بلا عمل، بلا زوجة، بلا أبناء، بلا أي شيء على الإطلاق.

ستّة أيّام، مرت عليه وهو يتلوّى، يعاني، يكابد، يهرش جلده حتى يحمرّ، ينام على جنبه، يضم ساقيه إلى صدره، يبكي، يبكي كثيرًا، ينهنه، يبكي بعنف، يبكي حتى تتفسّخ أوصاله، ينعس، ينام، يحلم أنه في حقل

مزروع بكل الكيوف، تنبت فيه أشجارٌ وحشائش وشجيرات، تثمر كلٌّ منها صنفًا مختلفًا، أشجار كبيرة تطرح سجائر ملفوفة، وأخرى تتدلّى منها حقن وإبر، وشجيرات تثمر حبوبًا كيميائية، وأعشاب تُستخدم وريقاتها في اللف والتدخين. يركض بينها، هذه جنّته، يجرّبها كلها، يشعر بالانتشاء. ثم يصحو على لا شيء. لم يبقَ له سوى الانتشاء بالأحلام. يكتشف تلك الحقيقة المفجعة، فيبكي، مجددًا..

في أحد الأيام، وكان اليوم السابع على وجه التحديد منذ مجاعته المزاجية، أيقن مليجي الصغير أنه في القاع، وأنه يمر بأسوأ أحواله على الإطلاق، كان ذلك بينما يتأمّل في المرآة، هالات داكنة تحيط بعينيه، ولحية نابتة وكئيبة تسوّد وجهه. في تلك اللحظة بالذات، انبثقت الفكرة في رأسه مثل خرّاج: لماذا لا يستثمر خلفيته العلمية في تخليق تركيبة ما تعمل على تنميل الدماغ، وتشعير اليافوخ، تلعب في كيمياء الجسد، وتمزج المزاج؟ في أقل من دقيقة كان قد أحضر ورقة وقلمًا، ودوّن قائمة مبدئية بالعناصر التي سيمزجها ليصل إلى توليفته السحرية: زِبل حمام، تبغ مجفّف، عناصر كيميائية، أوراق شجرة عوسج، عشبة ست الحسن، مسكّنات وأدوية للصداع، حفنة من غبار شوارع المدينة، جناحا بعوضة، قطرات من لعاب قط بلدي، وبعض الطمي من ضفة النهر القريب.

في المساء، وبعد جولة في المدينة، كانت المكوّنات قد اكتملت بين يديه، وكان الأمل يداعب روحه مثلما تداعب الكلبة جراءها وتلحسهم. حمل مليجي الصغير المكوّنات إلى المعمل، وشرع في تجاربه. وضع زِبل الحمام في الميكرويف ليجف أكثر، ومن ثم حوّله إلى مسحوق باستخدام الهون. خلطه بعصارة ست الحسن، وطحن عليه قرصين هما في الأساس أدوية لعلاج السعال والتهابات الصدر. احتار من بعدها هل يضع جناحي البعوضة أم لعاب القط، إلا أنه في الآخر استقر على رأي آخر، وأضاف حفنة متناهية الصغر من غبار الشوارع، صنع من خلطته ما يشبه المسحوق، تتخلله كتل صلبة كبيرة، أضاف إليها بعض التبغ المجفف ولفّها في سيجارة، ثم أشعلها. أدهشه أن لها مذاقًا جيّدًا، إلا أنها جعلته يسعل بعد نفسين مدة نصف ساعة.

دوّن مليجي الصغير التركيبة الأولى التي جرّبها ودوّن النتائج، قبل أن يخوض تجربة أخرى، فعزل رماد الشوارع من التركيبة، وأضاف لها أوراق شجرة العوسج، مع رشّة بنج، كانت التركيبة عشبية أكثر من سابقتها، ومنحه البنج خدرًا موضعيًّا في شفتيه، شعر أنه تقدّم نصف خطوة، وقرر مواصلة تجاربه حتى يحين موعده في الصباح؛ ليلتقي بصديقه الحميم علي علي، الذي استطاع أن يتدبر سيجارة بانجو صغيرة.

عشـر تجارب أجراهـا مليجي الصغيـر، أدخل مكوّنات وسـحب مكوّنات أخرى، ثبّت زِبـل الحمام، وأضاف بعض التوابل المطبخية، جـرّب آثـار تدخيـن الفلفل المبشـور على الدمـاغ، مضافًـا إلى طمي مجفـف ومطحـون وبعض أقـراص لعلاج الأعصـاب والصرع. كلما انتهى من تجربة دوّن المكوّنات والنتائج: سـجائر تجعله يدمع بغزارة وأخـرى ترفع حـرارة حلقه ولسـانه وشـفتيه، وثالثة تصيبـه بالنعاس، ليغفو قليلًا ثم يصحو لمواصلة سـعيه الدءوب.. عشر تجارب بالتمام والكمال، لم تُفضِ إلى شيء، حتى حان موعد لقائه بعلي علي.

-3-

ليجلب علي علي حفنة صغيرة من البانجو المفروك، بالكاد تكفيه للف ثلاث سجائر، صرف مدّخرات سنة كاملة من العمل كفرد أمن أمام أحد المولات، وحارس لباركينج سيارات. احتفظ لنفسه بسيجارتين، بغرض تدخين نفَس واحد يوميًا، وقرر أن يتشاطر الثالثة مع صديقه الأحب.

علي علي ومليجي الصغير، لا يذكر أي منهما متى بدأت المعرفة بينهما، منذ طفولتهما المبكرة وجدا نفسيهما يعيشان في البناية نفسها، زحفا على أطرافهما معًا، ونبتت أسنانهما اللبنية في الوقت ذاته، لعبا الغميضة والكرة وسباقات الجري معًا، وذهبا إلى الحضانة عينها.. في سنوات دراستهما الابتدائية، خاضا معًا الشجارات مع طلاب المدارس المجاورة، وفي نهاية تلك المرحلة دخّنا سيجارتهما الأولى، في الصف الثاني الإعدادي جلب علي علي أول عبوة جعة، واقتسمها مع مليجي، وفي العام التالي رد له صاحبه الدَّين بأول سيجارة حشيش. في المرحلة الجامعية كانا قد تشاركا أنواعًا لا تحصى من الكيوف.

سمع مليجي الصغير تلك الصافرة الطويلة المنغّمة التي كانت طوال طفولته شفرة مشتركة مع علي علي، بها يستدعي أحدهما الآخر، وبإدخال تنغيمات في مواضع معيّنة، يمرران رسائلهما المشفّرة، تنغيمة في البداية تعني: «ارمِ لي سيجارة من الشرفة». تنغيمة بعدها بقليل تعني: «احذر، أبوك طالع إلى البيت، لقد رأيته». وتنغيمة آخر الصافرة تعني: «فلنجمع ثمن سيجارة حشيش وندخّنها معًا في الخرابة».

من الأسفل وصلته الصافرة الطويلة تعلن عن وصول علي علي، ردًّها مليجي لصديقه بصافرة منغّمة تعني: «اطلع على الدرَج، المصعد مُعطّل».. وبعد دقيقة كان علي علي ينتصب أمامه، بقامته الرياضية الطويلة، دون أن يلهث، أو يبدو عليه أنه بذل أي مجهود في الطوابق الستة التي صعدها راجلًا.

-4-

بذرة بانجو، عثر عليها مليجي منسية في الحفنة الخضراء المفروكة، ولـم يصدق نفسـه، كاد يُصاب بذبحة، شـك في البدايـة أنها هلاوس بصريـة سـببها طول انقطاعـه عن الكيف، ثم فسّـرها على أنها حشـرة متكوّرة تطوي نفسـها داخل نفسـها، قبل أن يذعن في النهاية للحقيقة، ويقر بالكثير من السعادة وعدم التصديق، أنها بذرة بانجو سليمة، نطفة أولية لشـجرة قنب مشـتهاة، حدث ذلـك بينما يردد علـي علي بعينين دامعتين جملة واحدة دون انقطاع: «فلوسي حلال.. فلوسي حلال».

قال مليجي وهو يلف سيجارة البانجو الموعودة:

- نزرع البذرة؟

- طبعًا.

- ونستغني عن سؤال اللئيم.. ونوفّر فلوسنا.

- موافق.

- على الله ثم عليّ.

-5-

اختـار مليجي الصغير من التركيبات العشـر التـي جرّبها، الوصفة رقم سـبعة، ليس لأنها كانت الأفضل، ولكن لأنه يتفاءل بالرقم سبعة. مـزج مكوّناتها في ثوانٍ، ثم وضعها في قِـدر منزلي صدئ، نقعها أولًا ثـم غلاها، وأخذ من عصارتها المغلية ما يملأ إبرة، ومزجها مع مقدار أقل من عقار الأوكسيتوسـين المحفّز للطلـق الصناعي، ثم حقن بذرة البانجـو بدقـة عالية، قبل أن يزرعها في أصيـص كبير، خصص له ركنًا جيد التهوية في معمله.

قُـرب الصبـاح غادر مليجـي المعمـل، واتّجه إلى شـرفته الضيّقة، ليسـتمتع بنسـمة هواء، أحضر معـه تركيبة أخرى ليجرّبهـا: زِبل حمام + سـكّر + رشّـة بنج + مسحوق قرص مسكّن. مزج المكوّنات ولفّها بالـورق المصنـوع من السـليلوز. أشـعل سـيجارته، وراح ينفث منها ببـطء، متلـذذًا بالمذاق الغريب والدبق للسـيجارة، سـكّر محروق مع رائحـة عفـن محببة للنفـس، «عفن أليـف»، هكذا وصفـه. كان يحرز بعـض الانتصارات على مستوى المذاق، لكنه لم يولّـف بعد تركيبته الصحيحـة، التي تُدَرْوِخ الدمـاغ وتطيح باليافوخ، فباسـتثناء تركيبتين فقـط تمكّنتا من تشـعير رأسـه بلحسـة تنميـل لا تكاد تذكـر، لم يصل

مليجي للخلاصة المنشودة. شرد في أحلامه، واستجدى الوحي والإلهام، ابتهل لقدّيسي الكيوف بأسمائهم، وصلّى ودمعت عيناه من فرط الوجد، توغّل في حالته النيرڤانية وهو ممتن لسيجارة الزِّبل والسكّر التي أمدته بهذا السلام النفسي، عاد للتفكير في تجاربه، وفي بذرته الوحيدة. أنجز داخل رأسه مجموعة من التركيبات الجديدة تحسّبًا لفشل استزراع البذرة.

في تهويمات شبيهة انقضى الليل، قبل أن تخز دبابيس نور النهار عينيه، فيصحو من غفوته، ليجد نفسه نائمًا على كرسي من خشب البامبو في شرفته، بينما عقب سيجارته الأخيرة لا يزال راقدًا بين سبّابته ووسطاه.

غسل مليجي الصغير وجهه بماء فاتر، وبدّل ملابسه. مرَّ على المعمل وألقى نظرة على الأصيص، فوجده كما تركه قبل ساعات. بخّ عليه رشة ماء أخرى، ووضعه في زاوية تسمح له بأن ينعم بنور النهار.

-6-

خرج مليجي في مشواره المعتاد إلى المقهى، ليلتقي أصدقاءه، وينخرطوا في رحلة يومية للبحث عن أي شيء يعمّر الدماغ. رافقهم في جولاتهم في أزقّة المدينة لمحاولة الظفر بأي قرص ضال، أو سيجارة منسية، أو حتى إبرة نصف مستهلكة وملقاة إلى جانب جدار منسي ومهدّم.

بعد ساعتين من البحث، لم تسفر عمليات التمشيط سوى عن ربع قرص، ذوّبوه في كوب شاي، وتناوبوا شربه بواقع رشفتين لكل واحد.

تنميلة خفيفة ضربت جبهته وقفاه، وشعر لأول مرة منذ فترة بالرضا عن نفسه وعن الحياة. انتهى دور أصدقاء المقهى عند ذلك الحد، فاستأذن وغادر. أخرج من جيبه سيجارة زِبل وسكّر، دخّنها أثناء عودته إلى البيت، فمنحته غيمة من السكينة، مثل تلك التي نام على إثرها في الشرفة.

فور دخوله إلى البيت، شغّل التلفزيون ليرصد آخر المستجدات في النشرة الإخبارية، إلا أنه وجدها قد انتهت، جلس ليتابع الفيلم المذاع،

شعر بالملل والنعاس ولم يركّز في الأحداث، قرر أن يتّجه إلى غرفته لينام، لكنه مر أولًا على المعمل ليغيّر مكان الأصيص بما يتناسب مع موقع الشمس زوالًا، إلا أن صدمته كانت كبيرة جدًّا، عندما رأى شجيرة يافعة بطول ثلاثة أشبار تنتصب في وسط الأصيص الواسع.

-7-

كان صـوت التلفزيون يصـل حتى المعمـل، وكان مليجي يحملق بدهشـة فـي زرعته الشـابّة ذات تدريجـة الألوان الغريبـة بين الأخضر والبنفسـجي والأصفـر، لوهلة فكّر فـي أن يتصل بعلي علـي ليزف له الخبـر المفاجئ، إلا أنه قـرر التريّث حتى يفحص تلـك النبتة العجيبة أولًا. غسل يديه وعقّمهما، استخرج القفازات الطبّية من دُرْج المخزن، ووضـع كمامة على فمـه لكيلا ينقـل أي ميكروب للنبتة عبر أنفاسـه. لمـس السـاق فوجدهـا صلبـة ذات ملمس خيزرانـي، بينمـا الأوراق الخضراء الداكنة تأخذ لونًا بنفسجيًا عند منتصفها. سبع وردات في كل وردة سبع وريقات. تساءل مليجي في سذاجة إن كانت تلك السبعات بسـبب الوصفة رقم سبعة، إلا أنه سرعان ما انتهى إلى أن فرضيته تلك خُزعبلة، لا تقوم على أيّة أسس علمية.

بعد القليل من التفكير قرر مليجي اقتطاف وردة واحدة، واستعصار كل رحيقها وعصارتها، جفف الأوراق ثم سـحقها، فرك ميسم الوردة فتسـاقطت زخّتان من حبيبات الطَّلع، وأخذ عصارة ساق الوردة. مزج كل ذلـك، وخلص إلـى خلطة ذات قوام عجيني ناشـف، التقط منه ما

يمـلأ التقـاء رأس سـبّابته برأس إبهامـه، وخلطه بحفنة جافـة من تبغه المفضّل، تحسـس السـيجارة الملفوفة بين أصابعه، فشعر أنها مهترئة القـوام وطريـة، أدخلهـا إلـى الميكروويـف لسـبع ثـوانٍ حتـى جفّت واشتدت. دوّن كل تلك الخطوات في دفاتره السرّية، ثم أخذ سيجارته ورجـع بها هي والقلـم والدفتر إلى حيـث التلفزيون، الـذي كان يبث فيلمًا عربيًّا. ضبط مليجي الإضاءة الخافتة للصالة، جلس على الكنبة، أمام المنضدة الرخامية السـوداء، مدّد قدميه عليها، وأشعل السيجارة، ثم أسـلم نفسـه للأغنية الغامضة، التي كان الممثل الأسـمر الممشوق يستعد لتأديتها.

سـحب مليجي النفسـين الأول والثاني، سـرت رعدة في جسـده، وفـي رأسـه تنميلـة وامضـة. كان المغنّي الأسـمر يتمايل ويهـز كتفيه وسـط جوقة بسيطة. سـحب مليجي النفسين الثالث والرابع، فشعر أن إعصارًا يدوّم في رأسـه. وأن التلفزيون نفسه يرقص. سحب الخامس والسـادس والسابع، ثم ضربته الزلازل، كان في برزخ مزاجي محتدم، حاول أن يتساءل، إلا أنه لم يعرف عمَّ يتساءل بالضبط، والغيمة القريبة من الأديم تقترب منه وتكاد تلفّه، كان هذا يحدث، بالتزامن مع الممثل الأسـمر، الذي صدح من قلب التلفزيون بالتناوب مع جوقته، وبلهجة لا يألفها مليجي الصغير:

الأها أها إيه.. الأها إيه

أنا في اللابوريا.. الأها أها إيه

في إيه هنبكي عليه؟ الأها إيه

أموت في الفوريا.. الأها أها إيه

ليلي و نهاري يا بيه.. الأها إيه

صيّاد كابوريا.. الأها أها إيه

و إص.. إصطادوني يا بيه.. الأها إيه

صيد الكابوريا.. الأها أها إيه

كيفي ولا يُعلى عليه.. الأها إيه

أزأز كابوريا أزأز كابوريا

لو أزأزوني هأزأز إيه؟

كان صوت الياء الممدودة تعقبها الهاء، في أواخر كل مقطع الإيقاع الذي يرن في رأس مليجي، بعد أن انعزل عن صالة بيته، وراح يتساءل إن كانت تلك الأنشودة تعويذة أو شفرة غامضة أو شيئًا من هذا القبيل، قبـل أن يغمض عينيه، ويبتلعه الغياب في هيولى مبهمة لها لون النبيذ، بينما راحت أصداء تتردد في أذنه، وتلف الوجود نفسه:

أنا في اللابوريا.. الأها أها إيه.. الأها إيه..

أرض اللابُورْيا

حربُ الحَراصِيد

-1-

فتح مليجـي الصغير عينيه، فوجد حوله ثلاثـة رجال قصار القامة، لهم عيون واسـعة وأصوات مُسرسَعة، المسافة بين عيني الواحد منهم كبيـرة بشـكل لافت، وتحـت العينين مباشـرة، يقع أنـف معقوف إلى الأعلـى، أنف يكاد يشـبه خطم الحيوان أكثر من شـبهه بأنوف البشـر. كانت دهشته كبيرة، وفكّر أن يفرك عينيه كما يرى الممثلين يفعلون في الأفـلام، عقب العودة من غيبوبة أو نوم، لـو لا أنه كان موقنًا من صحّة مـا يراه. لـم يكونوا أقزامًا حتى، فـي الواقع، كانـوا.. «كائنات»، هكذا قال لنفسه!

قبل أن ينطق بكلمة واحدة، مال أحد الرجال قصار القامة على آخر وقال:

- آآاه.. أنسون.

هـز القصيـران الآخـران رأسيهما موافقين، شـعر مليجـي بالهلع مـن حقيقـة أنه وجد نفسـه، منبطحًا علـى بطنه في مكان يشـبه الحقل

مـع رجال بالغـي القصر لهم ملامـح عجيبة، يتعرّفون عليـه ويصفونه بالأنسون. «ما الذي تراه يا مليجي؟»، تساءل في دخيلته.

قال ذلك الذي يبدو أكبرهم سنًّا:

- أأنت أنسون؟

رد مليجي:

- أنا إنسان.

قال الرجل قصير القامة:

- أنسون يعني..

ثم نظر لصاحبيه وأشار بيده الصغيرة ذات الأصابع الرفيعة:

- أخبرتكم أنه أنسون.. أنا أعرف.

ثم عاد لينظر إلى مليجي وقال:

- أهلًا بالأنسون في أرض اللابوريا.

قال مليجي:

- أرض اللابوريا؟ وما أرض اللابوريا؟!

بشيء من البشاشة والزهو، قال الرجل قصير القامة:

- أنت محظوظ يا أنسـون لأنك وقعت في عزبة غندور بن هنكال من الحراصيد، هل ترى تلك الجبال هناك؟

وأشار بيده بعيدًا في الأفق، صوب شبح جبل في آخر المدى، وهو يواصل شرحه قائلًا:

- تلك حدود بلاد الحراصيد، واحدة من سبعة أقاليم تشكّل أرض اللابوريا. سَلني عمَّا تريد.. أنا أعرف الكثير من الأشياء.

لـم يكـن مليجي الصغير يفهم أغلب ما يُقـال، إلا أنه انصاع لغرور ابن هنكال هذا، وتبعه مع صاحبيه، عبر دروب خضراء تتخللها غدران مـاءٍ صافٍ، كان يمشـي خلفهـم، يرقبهم مـن أعلى، ويضيّـق خطواته لكيـلا يسـبقهم. وأثناء الطريق سـمع أحـد الاثنين المرافقيـن لغندور يشـتكي للآخر من مرور سـت سـاعات وهم في الطريق، بينما لم تمر سوى ثلاثين دقيقة حسب ساعته.

-2-

في الطريق، سيطرت الحيرة على مليجي الصغير، وأخذ يسأل نفسه: «ماذا حدث؟ وأين أنا الآن؟ ومَن هؤلاء الصغار اللطفاء؟»، وبعد نصف ساعة إضافية من المشي والصمت، كرر مليجي سؤاله على غندور حول أرض اللابوريا. وغندور لم يرد، كان يغذي الخُطى هو وصاحباه، يوسعون براجلهم الصغيرة، يهرولون لثوانٍ، ثم يعودون للمشي السريع. غندور لم يُعر سؤال مليجي أي اهتمام، وواصل مشيه الخفيف لدقائق، قبل أن يتوقّف فجأة، ويرتطم صاحباه بظهره، ومن ثم يقف مليجي أيضًا قبل أن يدهسهم، قال غندور:

– من حين لآخر نجد أفرادًا من بني أنسون هنا، لا نعرف مَن يلفظهم علينا، كل عدة سنوات نقابل أنسونًا، ومثلك أغلبهم لا يعرفون كيف وصلوا إلى أرض اللابوريا، جدي مجادو بن هنكال قابل واحدًا، قبل سبعمائة وسبعة عشر عامًا، أعطني دقيقة لأحسبها لك بأعماركم، غندور يعرف الكثير من المعلومات، آآه.. إممم.. قرابة ستين سنة أنسونية. أبدًا لم يعرف الأنسون الذي قابله جدي كيف وصل إلى هنا، آخر ما ذكره أنه كان يصلّي في دار عبادة ما، وأنه كان في حالة من

الصفو والشجن والتسامي، ثم غاب فجأة وصحا ليجد نفسه في أرض اللابوريا، ونزل في بلاد الجسّاسة، وهناك واحد آخر ظهر في بلاد الأباشير، ويقول إنه «مغنّي ميتال»، ويزعم أنه يذكر ما الذي حدث قبل أن يزورنا، اختفى في منتصف الحفلة، فجأة تلاشى من فوق المسرح، ذكّرني أن أسألك ما هو الميتال؟ أحب أن أضيف لمعلوماتي..

واصل غندور ثرثرته طوال الطريق، كأنه لا وجود لوضع وسط بين الصمت والثرثرة المتواصلة، كان مليجي يسمعه، بينما يتأمل معالم المكان الذي يمشي فيه، ويفكر في أنه سيحتاج إلى مجهود كبير ليتأقلم مع هذا العالم.

بيوت الحراصيد على عكس أجسادهم، تبدو كبيرة نسبيًّا، ومَردُّ ذلك إلى أنهم دأبوا على استضافة الأباشير لأن بينهم نَسَبًا، وحسب غندور، فالأباشير قوم يشبهون البشر الذين يسميهم الأنسون، ولهم أطوالهم نفسها، إلا أن لديهم أذنابًا ومخالب وأنيابًا. أما الحراصيد فهم أهل حضارة، لهم دولة ديمقراطية لكنها فقيرة، يقوم اقتصادها على الزراعة والحرف اليدوية البسيطة، ولا يمتلكون أي فوائض عدا ثروة هائلة من الباذنجان، ويسمّونه بيض الجان، هو غذاؤهم المفضّل.

كان غندور بن هنكال وصاحباه مؤمنين، هذا ما عرفه مليجي الصغير أثناء دردشة على العشاء المكوّن من الباذنجان المسلوق دون ملح، والذرة المسلوقة أيضًا والبطاطا المشوية. تنقسم بلاد الحراصيد

إلى مؤمنين بظهور الأنسون المرجو والمأمول، وآخرين يرون في تلك النبوءة - التي تناقلتها الأجيال، حتى غدت عقيدة، رغم عدم وجود أي رسل أو أنبياء لتلك العقيدة - خدعة، استغلتها بعض عشائر الحراصيد قديمًا لتسود على عشائر أخرى. الفئة الأولى هم المؤمنون الحراصيد الظهوريون، الذين يؤمنون بظهور واحد من بني الإنسان، سيوحّد الحراصيد ويقودهم للانتصار على الخطر القادم من الشمال. أما النصف الآخر من البلاد، النصف بالضبط، فهم الحراصيد الفراغيون، الذين لا يؤمنون بأي شيء، ويرون أن الحياة عبث، إلا أنهم يضطرون لمسايرتها والخضوع لقوانين العمل الإجباري.

اندهش مليجي الصغير من العقيدة الغريبة التي يعتنقها الحراصيد، وسأل عن ظهور الأنسون، كان ذلك بعد أن فرغوا من العشاء، حيث جلسوا ليحتسوا من خمر البصل اللاذع المفضّل عند الحراصيد.

-3-

في الأزمان الغابرة، أي قبل مائة وواحد وستين جيلًا بالضبط من الحراصيد - وهو بداية التاريخ المكتوب - ظهر الأنسون، هذا ما تحكيه الأحافير الأولى التي نحتها الحراصيد الأوائل، على لحاء الأشجار المعمّرة وفي قمم الجبال، مخلوق طويل القامة زار أرض اللابوريا في العصور الخالية، لا أحد يعرف يقينًا من أين جاء، كل ما يعرفونه هو أنه جاء، وتناسل مع مخلوقات أخرى من وسط وشمال أرض اللابوريا، أو مع كائنات من سكّان الجزر المقابلة للساحل اللابوري، بل ربما مع كائنات البحر نفسه، وأدى هذا التناسل لتخليق سلالة الحراصيد، وهنا توجد نظريات وأطروحات متنوعة حول الأصل الذي تحدّر منه الحراصيد، والنظرية الأكثر رواجًا والتي تتبناها الأمة، تقول إن الحراصيد تطور لمزيج من العرقيات والأجناس.

البداية كانت بين البشر والأقزام، أنتج هذا التزاوج سلالة تسمّى لدى علماء الحراصيد «الحرصود الأول»، تفاعل الحرصود الأول مع بيئته النهرية الزراعية، وخاض حربه الأولى ضد القنادس، التي أرادت الاستبداد بالنهر والأراضي المحيطة بضفتيه، وتطور الصراع إلى

حـرب معلنـة، تحالفت فيها القنادس مع حيوانـات النهر، بينما خاض الحراصيد معركتهم بأذرعهم العارية.

أقيمـت مجالـس الحـرب، وتعاقبت المعـارك التي مالـت لصالح الحراصيد على حساب القنادس، وقُتِل الكثير من الفريقين، ولما طال الأمـر، تدخّلت الغابة بما لها من حكمـة ونفوذ على الجميع، وأقامت جلسـة لأشـجار الغيطـان، وزروع الحقـول، وحتـى أعشـاب ضفاف النهـر، وانتهـى الأمـر بقرار جماعـي يضع حـدًّا للحرب عبـر نقطتين لا تنفصلان: عودة حيـازة النهر إلى الحراصيد، وإقامة صلح تمازجي بالتـزاوج بيـن الحراصيد والقنادس، وهكذا تم التناسـل مع القنادس، التـي تعيش بالقـرب من غدران النهر الوحيد في بـلاد الحراصيد؛ مما أكسـب سلالتهم تلك الملامح الحيوانية السميكة، وساهم في منحهم المزيـد من قصر القامة، وتلـك هي مرحلة «الحرصود الثاني - الحقبة الغُدرانية».

ثم جاءت أزمنة الفيضان العظيم، فهرب الحراصيد من جوار النهر، ولجأوا إلى الجرذان الذين قبلوا باستضافتهم في الوقت الذي خذلتهم فيه السناجب والقنافذ والأرانب، تلك تسمى بعصور «التجرّذ»، حيث ترسـخت صفـات القوارض فـي الحراصيد، وبات المشـي على أربع أطراف مدعاة للفخر، وتحوّلت إلى رياضة قومية، يقوم فيها الحرصود الطبيعـي، والذي يمشـي في العادة على قدمين، بخوض سـباق طويل جريًـا على أربع، للظفر ببيضـة الجان (الباذنجانة) الذهبية التي تسـغ

المجد والبطولة على صاحبها. في نهاية عصر «التجرّذ»، عاد الأنسون للظهور مجددًا، أنسون أسمر، قال إنه كان بحّارًا غرقت سفينته، ولستّة أيـام اعتلى طوفًا مطاطيًّا منفوخًا بالهواء، وقاوم العطش بالماء المالح، والجوع بالتناسـي، وفي اليوم السـابع، بعد أن تشـقق جلده، ولسـانه، وروحـه، وظـن أنه يحتضر، أغمـض عينيه وقرر الاستسـلام، ثم فجأة وجد نفسـه يفتح عينيه هنا في بلاد الحراصيد بأرض اللابوريا، هذا ما تقوله المرويات الحرصودية الشـفهية والموثقة على حد سواء. هكذا تناسـل الأنسون الأسـمر مرة أخرى مع التطور الأخير من الحراصيد، وهـو ما عاد لمعادلة الجانب الحيواني من تركيبتهم الجينية، فأعطاهم أعمدة فقارية أقرب للاسـتقامة، وجعلهم يفضلون السـكن في البيوت علـى العيـش في الأنفاق والجحـور والمصارف، أو حتـى العودة إلى مجـاورة غدران النهر. إلا أن كل ذلك لم يمنعهم من التشـبث بتراثهم القائم على القرض والحفر وبناء السدود.

قال غندور بن هنكال:

– لذلـك تـرى رايتنا بيضاء، في كل زاوية من زوايا المسـتطيل رمز باللـون البيضجاني: إنسـان. قزم. قنـدس. جرذ. وفـي منتصف العلم رمزنـا القومي: ثمرة بيض الجان. نحن فخـورون بما نحن عليه، نحن حراصيد مؤمنون و لنا الشرف.

تساءل مليجي الصغير:

– وماذا عن الحراصيد غير المؤمنين؟

رد غندور بحماس:

- محرّفون، وجهلة، هؤلاء لن يمنحهم إلهنا أي بيض جان سماوي في يوم المصائر، بعد أن نفنى.

رمى له مليجي بسؤال آخر:

- وماذا عن كونهم يحكمون البلاد في الوقت الراهن؟

نظر غندور إلى المدى، إلى اللا شيء، تنهّد، ثم قال بصوت مُسرسَع وواثق:

- أيام الشدّة ستزول يا أنسون، وفي ظروف الحرب التي نعيشها، لا يهم مَن يحكم، لكن المهم بالفعل سلامة الأمّة ووحدتها، نريد أن ننتصر. ما اسمك بالمناسبة؟ يجب أن أحفظه للتوثيق، ولأزيد معلوماتي.

قال مليجي:

- اسمي مليجي، مليجي الصغير.

أصدر غندور صوتًا يشبه قوقأة الدجاج، فهم مليجي أنه يضحك بسبب اسم «الصغير»، قاطعه:

- لكن ضد مَن تخوضون الحرب؟

رد غندور:

- تذكر الجبال التي أريتها لك عندما وجدناك في الحقل؟ بعد تلك الجبال تقع أباشيريا، بلاد الأباشير، الإقليم الثاني من أرض اللابوريا، والأباشير قبائل بدوية، تعيش في صحراء كبيرة، يأكلون الجرذان والأرانب البرّية والقنافذ والعقارب والثعابين والسحالي والضباب والظباء البريّة، ويتمركزون حول سبعة آبار، تشكل كل الثروة المائية لأباشيريا، لأن بلاد الجسّاسة تفصلهم عن الساحل الشرقي، ولم يتسلّق أحد بعد جبال الساحل الغربي الشاهقة التي تعزلهم عن البحر. بيننا وبينهم نسب، بين الحين والآخر يهرب بعض شبّانهم ويأتون إلى بلادنا ليعيشوا معنا ويتزوجوا منّا ويعملوا بالتجارة أو الزراعة. لكن هذا النسب لا يمنع أن بعض قبائلهم المحاربة تُغير على تخوم بلادنا بين الفينة والأخرى، ونحن نخوض حربنا ضدهم لفرض السيطرة على الصحراء والجبل الفاصلين بين بلدينا. لولا جنودنا ولولا أسلحتنا الرادعة لغزوا بلاد الحراصيد دون شك.

كان مليجي الصغير مأخوذًا بالتفاصيل التي يحكيها غندور ابن هنكال، لا يصدق العالم الذي زُجّ به فيه، لابوريا وحراصيد وأباشير وأمور لا تصح حتى مع الهيروين! «ماذا فعلت بي النبتة العجيبة؟»، تساءل لثوانٍ، قبل أن يعود لمواصلة حواره مع غندور:

- وما أسلحتكم الرادعة؟

بفخرٍ، رد غندور:

- لا تستخف بنا يا أنسون، لدينا سلاح الفساء، بيض الجان والبصل والكُرُنب والقرنبيط، محاصيلنا المحلية، وطبيعتنا تمنحنا رائحة فساء فتّاكة، عند أسوارنا الحدودية أنابيب ضخمة نتمركز أمامها بمؤخراتنا، وتتكفل مراوح عملاقة بإثارة زوابع فساء ترابية تصدّ الأعداء وتقتلهم وتمنع الكثير من الغارات القادمة علينا من ناحية أباشيريا.

انفجر مليجي الصغير ضاحكًا، وكان واضحًا أن ضحكه لم يرُق لغندور، الذي قفز بغتة مستديرًا في الهواء ثم أصدر ريحًا ذا صوت يشبه صرير باب ينفتح، وفي التو داخ مليجي وسقط ليرتطم بالأرض. ابتسم غندور ابتسامة المنتصر، وقال:

- احذر فساء الحراصيد.

-4-

لم ينشغل مليجي الصغير بعدّ الأيام التي قضاها في بلاد الحراصيد، قدر انشغاله بالتعرف عليهم وفهم سلوكهم وعاداتهم، والاستمتاع بكل دقيقة في وقته، كان موقنًا أنه محظوظ لأنه ضيف عند واحد من أثرياء الحراصيد ووجهائهم، وقد تكفّل غندور بن هنكال باصطحابه مع مرافقَيْه الغامضين في جولات بالعزبة، التي يمتلكها على حدود بلاد الحراصيد وأباشيريا، كما حرص أيضًا، على التنبيه على أتباعه، والحراصيد المزارعين في عزبته، بألا يفشوا خبر الأنسون الذي ظهر قرب الحقل، ريثما يتيقّنون من كونه الأنسون المرجو والمأمول، الذي نصّت عليه النبوءة القديمة في الميثولوجيا والتراث الحرصودي.

تلك الأيام كانت جنّة مليجي وسلواه في عالمه الجديد، إذ تكفّل غندور وأتباعه بتوفير حياة كريمة له، فمنحه جناحًا واسعًا في قصره بالعزبة، يطل على حقول خضراء مزروعة بالقرنبيط والكرنب والباذنجان والخيار والجزر، كانوا نباتيين تمامًا. للجناح شرفة رائعة تطل على مشهد رومانسي.. الحقول، ونقيق الكائنات الصغيرة المجنّحة التي تشبه الضفادع، ويقولون لها «النعّارة»، وبخلاف كرم

الضيافة، اصطحبه غندور إلى عرس ريفي شعبي، وشارك مليجي في رقصة «الزحفة»، كما أنشد مع المدعوين أهزوجة «حبّنا طويل مثل الأنسون»، ومارس فيه المدعوون طقس الحفر الجماعي، كما شاهد سباقات الجري على الأطراف الأربعة، وزار معاهد وكتاتيب الحراصيد المؤمنين الريفيين، وداعب أطفالهم الصغار جدًّا بحجم قبضة يد، وتسلّى بقراءة كتبهم، التي تحكي التاريخ القديم والحديث للحراصيد، وأطوار تشكّل دولتهم وحروبهم، التي خاضوها ضد الأباشير وضد سكّان الجزر المقابلة للساحل اللابوري، وعرف كيف انبثق من بين الحراصيد، فئة الفراغيين، الذين لا يؤمنون سوى بالحياة والعمل، دون أي قَدْر من الغيبيات، على يد مُنظّرهم الأول أعدامي ابن فرّوغ.

كان غندور يخطب في أتباعه كل عدة أيام، ويعقد معهم جلسات لاستذكار التاريخ، وسب ولعن الحراصيد الفراغيين المحرّفين لصحيح النبوءة. وكان يتهمهم بالجهل والعمالة لحساب أقاليم الجوار في أرض اللابوريا.

في تلك الأيام، أكل مليجي الصغير كميات كبيرة من الكرنب والباذنجان والقرنبيط حتى ازداد وزنه بشكل ملحوظ بسبب حياة الدعة والكسل التي يحياها، وأصبح لفسائه رائحة كريهة جدًّا، أكثر مما اعتاده، إلا أنها تبقى مقبولة مقارنة بفساء الحراصيد القاتل.

إضافة لذلك، بدأ مليجي يحكي للحراصيد في جلسات السمر وشواء الذرة، بعض الشذرات من التاريخ الإنساني. أبهرهم بسعة اطلاعه وغزارة حكاياته الشيّقة المستقاة كلها من التراث الإنساني، فقص عليهم حكايات ذات الرداء الأحمر، وأحدب نوتردام، ونداهة الترعة، والثيران الثلاثة، وقصة السلحفاة والأرنب، وحكاية الغراب والثعلب، وأسطورة الجنّية عيشة قنديشة، كما أوجز لهم تاريخ الحروب الإنسانية، وركّز في ذلك على الحروب الأهلية، وكيف تقوم بعض الطوائف البشرية بالاقتتال الذاتي، الذي يؤدي في النهاية إلى ضعف الأمة وترنّح الدولة وتعرضها لمخاطر الغزو الخارجي.

حكى مليجي لهم أيضًا عن مدينته، وتراثهم الكيوفي الذي صار ثقافة مميزة لهم، وسرد مواقف طريفة جمعته بصديقه علي علي وشلة المقهى، كما تذكّر في غمرة ذلك اللحظات الأخيرة له هناك في أرض الواقع، قبيل وصوله بلحظات إلى أرض اللابوريا، فحكى لغندور حكاية بذرة البانجو الضالة وتجاربه المعملية، التي أفضت إلى شجرة غريبة نبتت في ساعات قليلة بالتوقيت الأرضي؛ أي قرابة أربعين ساعة بالتوقيت الحرصودي.

في المقابل، كان الحراصيد الظهوريون من أتباع غندور بن هنكال يزدادون حول مليجي يومًا بعد يوم، ويرون فيه نبوءتهم القديمة متجسدةً أمام أعينهم الواسعة والمتباعدة. وبمرور الوقت، توالت

اختبارات ابن هنكال لمليجي، التي ستثبت أو تنفي إن كان هو الأنسون المرجو والمأمول، وطالت استضافته السرية له بغرض تأمّله، والتمعّن فيه، والتحقّق من كونه الأنسون المنتظر.

هكذا مضت أيام مليجي في عزبة غندور بن هنكال ببلاد الحراصيد، حتى جاء ذلك اليوم المشئوم، فلأن دوام الحال من المحال، وكتمان الأسرار في بلاد مثل بلاد الحراصيد أمر صعب، زار عزبة ابن هنكال في صبيحة أحد الأيام رسول من طرف هوفل بن ماضا، المتحدث الرسمي باسم الفراغيين، وعضو مجلس شيوخ الحراصيد، والقائد العسكري المتقاعد، جنرال عجوز، إلا أنه يحتفظ بقوام رياضي مقارنة بغندور صاحب الصلعة الكبيرة والكرش الصغيرة. كان هوفل أطول من غندور بعُقلة كاملة، وهي مسافة شاسعة بالنسبة لتلك المخلوقات.

الرسول تحدّث باسم سيده الفراغي المتمرّس والمخضرم، وطلب تحديد موعد لزيارة عزبة غندور. بمنتهى الهدوء رد هذا الأخير على الرسول بتحديد موعد في المساء، ريثما يتم تجهيز البيت بما يليق بـ«مقامه الطويل»، كما يرد في أدبيات الحراصيد. إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك تمامًا، لأن غندور بن هنكال أدرك فورًا أن أحد المزارعين سرّب، بقصد أو دون قصد، خبر وجود الأنسون في العزبة، وهذا ما استدعى أن يطلب هوفل بن ماضا مقابلة غندور، ربما ليعاين المكان

بنفسه، ولذلك أراد غندور أن يتدبّر أمر إخفاء مليجي، قبل أن يصل القائد الفراغي الذي يتربّص به.

طلب غندور من صاحبيه أن يتوليا مهمة نقل مليجي إلى مستودع الغلّة في آخر العزبة، وهناك طلبا منه أن ينام في إحدى حظائر المستودع، ومن ثم تم ردمه بثمار القرنبيط والباذنجان والكرنب، وأعطياه التعليمات بأن يبقى مستلقيًا على وضعه ذلك، حتى وإن شعر بأن رجال هوفل يفتّشون المكان، فعليه ألا يتحرّك إلا حين يصل مساعدا غندور، ويقولان كلمة السر: «يا فرخ الجان.. اخرج من بيض الجان».

-5-

في المسـاء، وصل القائد هوفل بن ماضا ضمن موكب من مرافقيه ورجاله، كوكبة كبيرة من الحراصيد الفراغيين، الذين يشغلون مناصب قياديـة ويتولـون مقاليـد الحكم في البـلاد، حزبيون وقادة عسـكريون ورجـال دولـة وسياسـيون، تحيـط بهـم أعـداد مـن حـرس النخبـة الحرصودي. استقبلهم غندور بن هنكال ببشاشة وترحاب، فرش لهم الأرض بالباذنجـان، وقرض لهم خشـبة تعبيرًا عن سـعادته بزيارتهم، ثـم دعاهم إلى مضيفته ليأتنس بهم. وهناك، حيث بيت الضيافة، دخل هوفل إلى موضوعه بشكل مباشر:

- ما حكاية الأنسون يا بن هنكال؟

قال غندور بهدوء:

- معاليك تسألني عن الأنسون، وأنت من كبار الفراغيين؟ كيف؟

ردّ ابن ماضا:

- أنا لسـت مسـتعدًا للموت من أجل أفكاري؛ لأنني ربما قد أكون مخطئًا، لكنني مسـتعد للموت عشـر مرات من أجل شـعب الفراغيين

الطيب، نصف هذه البلاد، الذين يضعون ثقتهم بي وبهؤلاء السادة. الآن قل لي، هل ظهر الأنسون؟

بعد ابتسامة ماكرة ردَّ غندور:

- ولنفترض أنه ظهر، ما الذي سيتغيّر في الأمر؟

أجاب هوفل:

- يا غندور، كن حرصودًا مستقيمًا ولا تراوغ، تعرف أن الأمر سيفرق كثيرًا، نحن طائفتان منذ الأزمنة الغابرة، مرت علينا آلاف السنين ونحن نتناوب حكم هذه البلاد، زرعتم وزرعنا وسقيتم وسقينا وحاربتم وحاربنا وتنازعنا المجد حتى تجاثينا على الركب، ثم تأتي أنت الآن لتقول ظهر فينا الأنسون المرجو والمأمول؟ هذا يغير كل شيء.

هنا رد غندور:

- سيدي، تسعدني زيارتك لعزبتي، لكن يؤسفني أن أخيّب ظنك، المرجو والمأمول لم يظهر بعد.

قبل أن ينهي غندور جملته، تناهت من على مقربة ضجة وصخب، وسُمعت أصوات الجنود، قبل أن ينفتح الباب ويدخل مليجي الصغير إلى المضيفة الواسعة - تحت أنظار الجميع - رافعًا يديه فوق رأسه،

يتبعه قرابة الأربعين حرصودًا فراغيًا، يحاصرونه، ويشهرون أسلحتهم الصغيرة في وجهه.

قال قائد الجنود، وهو يؤدي التحية العسكرية، لهوفل بن ماضا:

- بأمرك سيدي، شممنا رائحة فسائه المختلفة، وتمكّنا من تحديد موقعه في مستودع بيض الجان، وضبطناه.

نظر غندور إلى مليجي معاتبًا بسبب سهولة القبض عليه، غير أنه استبق أي كلام وبرر موقفه:

- الكُرنب!

-6-

لم يعمل مليجي حسابًا لمثل هذه اللحظة، ولا حتى الجنرال هوفل ابن ماضا، لكن غندور كان يتوقعها، وعمل سرًّا لسنوات على تجهيز قوة كبيرة من الحراصيد المؤمنين الظهوريين، كان منذ زمن قد أدرك قرب لحظة الصدام، فأسس قوّات ومليشيات من الظهوريين الأشدّاء، درّبهم وأمدّهم بالأسلحة، قسّمهم إلى كتائب ودعمهم بالأموال، ثم وزّعهم في أرجاء عزبته الكبيرة، التي تشكل أكثر من ثلث مساحة البلاد.

فاجأت قوات الظهوريين الجنرال الذي جاء بمعيّة حراسة مكوّنة من مائة جندي فقط، بينما شكّل الحشد الذي كوّنه ودرّبه غندور قرابة الثمانمائة من سكّان عزبته وهكتاراته الشاسعة.

في ثوانٍ انقلبت الآية، ووجد جنود هوفل بن ماضا أنفسهم محاصرين تمامًا، لكن هذا لم يجعل أيًّا من الثمانمائة قروي ينتبهون للطبق البلاستيكي الطائر، الذي طيّره أحد جنود هوفل، محمّلًا برسالة استغاثة إلى بقية أنصاره خارج عزبة ابن هنكال. كانت الأطباق البلاستيكية الطائرة هي وسيلة التواصل الأكثر بدائية في بلاد

الحراصيد، إلا أنها كانت وما زالت تشكّل جزءًا أصيلًا من مواهب وهوايات أي حرصودي. لذلك، بالمثل، طيّر رجال غندور بن هنكال طبقًا آخر.. ليطلبوا المدد.

في وقت سريع اشتعلت الأمور، وعلم جنود هوفل بن ماضا المحاصرون أن أنصارهم أضرموا النيران في بعض بيوت الظهوريين، فارتفعت معنوياتهم، وقرروا الاستبسال في مواجهة الجنود أصحاب الأرض، على أمل أن يصمدوا حتى يصلهم الغوث.

في صالة المَضْيَفة الواسعة، دار حوار بين الغريمين، فقال غندور ابن هنكال مخاطبًا ندّه:

- هل عرفت الآن أن الإله حق وأن الأنسون حق يا محرّف يا مجدّف بالنبوءة؟

غير أن الفارس المخضرم كان قد أشهر سلاحه وراح يتقافز بخفة موجهًا الضربات والطعنات إلى القرويين المسلحين، ورد بغرور وثقة:

- ستُقتل أنت ونبوءتك وقروييك يا ابن هنكال، اصبر عليّ.

كان غندور يركض بخفة بين صاحبيه الغامضين، واللذين اتضح أنهما فارسان من قوات الحراسة الخاصة، هما الأعلى كفاءة في صفوف المقاتلين الظهوريين. كان غندور يشعر بالأمان وهو بينهما

حتى لو كان في أرض الأباشير نفسها، وحتى لو قابل الجسّاسة، لذلك فقط رد بثقة:

- أعدك بالعكس.

ومضى يباشر القتال، ويوجّه الرجال في الاشتباكات، كان يريد أن يقضي على قادة الفراغيين، ليبقى جسد شعبهم بلا رأس؛ لاسيّما وقد وصلته الأخبار بالأطباق الطائرة، بأن الاشتباكات اندلعت بطول البلاد وعرضها، وأن الفراغيين يُعملون مقتلة في ظهوريي وسط وشرق البلاد، مستغلين تواجدهم في الحكم وخضوع أجهزة الدولة التنفيذية لهم.

في خضم تلك الفوضى، حاول مليجي الفرار عدّة مرّات، كان يركض في جميع الاتجاهات، وأينما ذهب وجد قتالًا جانبيًا، وكانت الأعيرة النارية الطائشة تدوّي بالقرب من أذنيه، وخدمه الحظ مرارًا عندما نجت ساقاه وركبتاه من الضرب، حيث الارتفاع الأقصى للاشتباك.

بدأت القوات الضئيلة للفراغيين في الاندحار، وانخفض عددهم من مئة ونيف إلى سبعين مقاتلًا، إلا أنهم ظلوا صامدين يذودون عن سيدهم هوفل بن ماضا، ويأملون في نصر صعب، يأتي عن طريق قوّات الغوث المكوّنة من ثلاثة آلاف جندي، والتي أخبرتهم الأطباق

البلاستيكية الطائرة بأنها اتخذت طريقها بالفعل إلى أرض المعركة، في عزبة غندور بن هنكال.

حافظ الفراغيون على مواقعهم في مضيفة العزبة، وتمترسوا حول قائدهم، اتخذوا مواقع مركزية مميزة، وراحوا يصدّون هجمات فلاحي العزبة والمقاتلين الظهوريين ببسالة، والغريب أن كلا الفريقين لم يستخدما سلاح الفساء في حربهم، ربما لأنهم يعلمون أنه غير فعّال ضد الحراصيد أنفسهم، وربما لأنهم يرونه فتّاكًا جدًّا، فاختاروا أن يخوضوا معركتهم بشرف على طريقة المدارس القديمة والحراصيد الأوائل. لكن، رغم ذلك، كانت روائح كريهة تسود ميدان المعركة، روائح نفّاذة وحادّة أصابت مليجي بالدوار، حتى إنه تذكّر الدوخة العاصفة التي كان فيها بعد أن دخّن سيجارة الشجرة العجيبة. فقد مليجي توازنه وسقط أرضًا، داخ، فأنقذه بعض الحراصيد الظهوريين، وحمله ثمانية منهم، أربعة من كل جانب، كان غندور واحدًا منهم، وأخرجوه إلى مكانٍ آمنٍ قريبٍ من ساحة المعركة.

-7-

وصلت الأطباق البلاستيكية الطائرة لتنذر غندور بن هنكال بأن ثلاثة آلاف مقاتل فراغي على بُعد عشر دقائق من اقتحام العزبة، والقصر، والمضيفة. وطبق آخر يقول إن مددًا مكونًا من ألف فارس ظهوري سيصلون صباح الغد، ويطالبونه بالصمود. كانت المعركة تدور على بعد عدة أمتار، وكان مليجي جالسًا على رمال الفلاة، يحاول التقاط أنفاسه وتوسيع شُعَبه الهوائية المنقبضة بعد تنشُّق جرعة كبيرة من الروائح الفتّاكة.

نظر غندور إلى رجاله، الذين بدوا مستنزفين، رغم كثرتهم، فقد خسر منهم مائة مقابل أربعين من الفراغيين. أمرهم بأن يعودوا للمعركة، فانصرفوا جميعًا، إلا الثنائي الذي يلازمه منذ أول مرة رآه فيها مليجي.

غندور التفت إلى مليجي بعينين دامعتين، وقال:

- سيبيدوننا!

لم يعرف مليجي ما الذي عليه بالضبط أن يقوله، ارتعشت شفتاه، ورمش بعينيه، وقبل أن ينطق بأي كلمة، داهمه غندور:

– سننتصر لمدة خمس دقائق، قبل أن تأتي جيوش الفراغيين بأسلحتها الثقيلة وتُعمل فينا مقتلة.

دمعت عينا مليجي الصغير، ونهض ليعود إلى المعركة، إلا أن غندور منعه بإشارة، أدار ظهره إلى ساحة القتال، وأشار صوب الجبال في آخر المدى، وقال:

– اهرب!

سكت مليجي، لم يكن يصدق ما آلت إليه الأمور، سأل معاتبًا:

– والمعركة؟ والنبوءة؟

لكن رد غندور جاء ليُسكته إلى الأبد:

– أنت نحس يا مليجي، سوف نموت بسببك، وستنهار أمة الحراصيد بسبب طلّتك البهية علينا، وجودك صار شؤمًا، اطلع من هنا، سوف يأتون الآن ويبيدوننا، امضِ شمالًا، من هذا الاتجاه، اقطع صحراء القِفر، ثم تجاوز جبل التخوم، لتصل إلى أباشيريا، وخذ هذه معك.

أمر غندور أحد تابعيه، فأعطاه زوّادة مشبوكة بحبل. تناولها مليجي، وهو يشعر بامتعاض من إهانات غندور، كانت طلائع كتائب الفراغيين أصبحت مرئية، سأل مليجي وهو يستعد للمغادرة:

- هل ستستسلم لهوفل وتعلن خطأ نبوءتك؟

انتفض غندور ونظر مباشرة في عيني مليجي وقال بتحدٍّ:

- النبـوءة حـق، والأنسـون حـق، أنـا أعـرف ذلـك، وأعـرف كل الأشـياء. كل ما في الأمر أننا خُدِعنا فيك وظننـاك المرجو والمأمول، لكن النبوءة تقول إنه سيأتي ليوحّدنا، وينصرنا، أما أنت فشؤم وخراب، جئت فأشعلت الحرب.. ارحل!

ثم بنبرةٍ أخف وهو يعود إلى المعركة:

- وفي طريقك احذر الشق، وأفاعي القُهَيْقران!

لم يفهم مليجي أي شـيء، كان الغضب يمنعـه من التفكير، أحكم تعليـق الـزوّادة فـي كتفه، ثم اسـتدار صـوب الجبـال، ودون أن ينبس بكلمة واحدة، مضى في طريقه المظلم نحو أباشيريا.

ألغازُ صَحراء القِفْر

-1-

لحسن الطالع، كان هناك بدرٌ يضيء الفلاة، مكتمل الاستدارة، إلا أنه صغير، أصغر من ذلك الذي اعتاد مليجي رؤيته في دنياه القديمة، بدرٌ ذابل يلقي ضوءًا خافتًا مهتزًا، ويرمي بأجوائه الرومانتيكية على تلك المساحة المفتوحة من الرمال، وإلى جواره قمر آخر أصغر، لا يكاد يضيء، ضئيل بحيث يحسبه الرائي شامة في خد السماء. تأمّل مليجي المكان حوله، قفار مظلمة على امتداد الرؤية. فكّر كم هو بحاجة إلى سيجارة، أي سيجارة، لتجلي مزاجه، وتصفّي اعتكاره، وترقرق كدره. فكّر كذلك في الحراصيد، أشفق عليهم، وازدراهم أيضًا «مخلوقات مقرفة»، هكذا قال لنفسه، وهو يخطو فوق الرمال الناعمة.. فكّر أيضًا في البيت الواسع وكم يفتقده، المعمل وغرفة النوم والكنبة الموضوعة أمام التلفزيون، استعاد عالمه الأول وأصحابه وعلي علي وكل صِلاته بهناك.. هناك حيث الأشياء العاديّة، والطبيعية، وتاريخه وكل ما خبره في عمره.

كانت الأسئلة تدوّم في رأسه كزوبعة: لماذا ساير الحراصيد الظهوريين منذ البداية، وهل صدّق للحظات أنه المرجو والمأمول

الحقيقـي، هـل صـدق أصلًا ديـن الظهوريـين أو حتـى الفراغيين؟ تسـاءل عـن مصيـر غندور بـن هنـكال، هل قُتِل؟ وهل أخمـد هوفل ثـورة الظهوريين، «لا بد أن مؤرخيهم سيسـمّون تلك الموقعة «معركة العزبة»، خمّن مليجي.

هكـذا أمضـى ليلته في الصحراء، سـائرًا في خط مسـتقيم، واضعًا بـلاد الحراصيد خلف ظهـره، وجبل التخوم بين عينيـه، لا يلوي على شيء، تارة يتفحّص مكوّنات الزوّادة، وتارة يفكر في مصير الحراصيد بعد الحرب الدامية التي اشتعلت في بلادهم، وأحيانًا يستعيد ذكريات أقـدم، تعود لحياته فـي العالم الذي اعتاده، متخيـلًا حزن وحيرة علي علي بسبب اختفائه المفاجئ والغامض.

في الزوّادة، وجد مليجي خريطة لأرض اللابوريا، وزجاجتي ماء، وزجاجة من سـائل آخـر خمّن أنه عصيـر القرنبيط، كسـرات من خبز جاف يسـميه الحراصيد «مَقْرَضة»، وبوصلة، وأقمشـة ليتلفّح بها ضد البـرد ويلتحفهـا ضد الحر، قطعة قماش سـحرية صغيـرة بحجم كف اليـد، إلا أنهـا عندمـا تُفرد، تصل إلى خمس وسـبعين بوصـة، وهو ما يكفي مليجي الصغير ويفيض عن حاجته.

على ركبة ونصف جلس مليجي، فرد الخريطة على رمال الصحراء، حدد إحداثياته، وأدرك أن رحلته للشمال لن تكون قصيرة، لكنها أيضًا

لن تكون طويلة، يومان من المسير، «ستمشي حتى تتفسخ أوصالك يا مليجي»، قال لنفسه. لملم أشياءه وواصل المشي.

أفكار أفكار أفكار، اصطخب رأسه ولم يعد يدرك أي محاور صالحة للتفكير، هل يحاول أن يحلل الطريقة الغامضة التي أوصلته إلى أرض اللابوريا؟ هل هو هناك بالفعل، أم أن كل ما يراه ليس سوى هلاوس من تأثيرات سيجارة النبتة العجيبة؟ أم أن الأولى به أن يشغل باله بسفره الاضطراري إلى أباشيريا؟ أو ربما عليه أن يُسلّي نفسه في تخيّل مصائر مختلفة لغندور بن هنكال؟

وفقًا لساعته، فقد قضى أربع ساعات من المشي، ووفقًا لبوصلته الجديدة والخريطة فهو يمضي في أقصر طريق إلى جبل التخوم، والذي - إضافة إلى صحراء القِفر - يشكل الفاصل الطبيعي بين بلاد الحراصيد وأباشيريا.

عندما لاحت أولى بشائر الصباح، اطمأن قلبه، وأدرك أنه قطع شطرًا لا بأس به من المسافة نحو الجبل، قرر أن يكافئ نفسه ويرتاح، فرش القماش وجلس عليه، فتح الزوّادة وشرب رشفات كبيرة من زجاجة عصير القرنبيط الذي أعجبه رغم فجاجة طعمه وفقره. مدّد قدميه ودلّكهما، تمطّع وطقطق مفاصله، سرى الخدر في عروقه وشعر أنه في حاجة إلى هدنة، شعر أنه منتشٍ بالهدوء والراحة التي

تعقب التعب. أسلم رأسه إلى الزوّادة التي استخدمها كوسادة، ودخل في نومٍ هادئ.

في منامه، حل مليجي كل مشكلاته، منح صاحبه غندور بن هنكال معجزة صغيرة، وجعله يصمد حتى وصول المدد ومن ثم ينتصر على الفراغيين. كذلك فسّر وجوده في أرض اللابوريا على أنه أمر مسلٍّ يشبه ألعاب الڤيديو جيم، وأكّد لنفسه أنه لو شاء أن يصحو من نومه الآن مقررًا التوقف عن اللعب، فبالقطع سيجد نفسه تلقائيًّا هناك في بيته، على كنبته المحببة، أمام الطاولة ذات الرخام الأسود. أما الأباشير، فلا شك أنهم سيكونون لطفاء، لا سيّما وهم أشباه بشر حسب وصف غندور، «نحن متشابهان»، قال لنفسه..

من مكان غائر في رأسه، سمع مليجي مَن يردد: «بالطبع نحن متشابهان»، أطربه أن الأباشير يقرّون بهذا التشابه ويرحبون به حتى إن كان ذلك في أحلامه، وحاول أن يشكرهم على حسن استقبالهم، إلا أن الصوت سبقه وعاد ليقول بوضوح هذه المرة:

– نحن متشابهان..

لوهلة، أدرك مليجي، في لا وعيه، أن هذا الصوت آتٍ من مكانٍ ما خارج رأسه. فتح عينيه وفز مفزوعًا، فأبصر أعجب منظر يمكن أن يراه إنسان.

-2-

مليجي كان يعرف أنه بلّل ثيابه، لكنه ولله الحمد لم يُصب بجلطة، أدرك ذلك بعد مرور عشر ثوانٍ أمام المسخ، الذي وجده يشاركه التمدد على قطعة القماش السحرية: نصف إنسان، بعين واحدة، وخد واحد، وذراع واحدة، وساق واحدة.. نصف أيسر فقط.

النصف كان يتأمل ذعر مليجي دون أن يتكلّم، ومليجي كان يتأمّل النصف محاذرًا من أن يبدي أي حركة تشنّجية تزعجه.. لأنه حتى تلك اللحظة لم يكن متأكدًا ما إذا كان هذا المخلوق مسخًا، أم حيوانًا، أم هجينًا عجيبًا، وبالتالي فهو لا يضمن ردود أفعاله!

بهدوءٍ، مدّ النصف يده الوحيدة إلى الزوّادة قُرْب مليجي، نبشها، وخرج بزجاجة الماء، حلّها بيده ونصف فمه، ثم كرع جرعات هائلة، لم يترك قطرة ماء واحدة. بعدها مد يده بالزجاجة إلى مليجي الذي راح يتأمّل اليد الممدودة لثوانٍ، قبل أن يتناول الزجاجة بحذر شديد ويضعها إلى جواره، ومن ثم يمتد الصمت مرة أخرى.

بادر النصف:

- نَسناس، من الشق.

كان مليجي يحاول أن يتأمل الجانب غير الموجود من هذا الشيء، الـذي يجلـس معـه في صبيحـة أحد أيـام صحـراء القفر، «أيـن خدّك يا رجل؟»، تساءل مليجي في دخيلته، قبل أن يبادر بصوت مرتعش:

- أنـا مليجي، إنسـان، أو أنسـون، ابن سـبيل، فـي طريقي من بلاد الحراصيد إلى أباشيريا.. الله سألتك ألا تؤذيني.

ابتسم النصف، أو نَسناس، وقال بنبرة مُطَمْئِنة:

- لا نؤذي ضيوفنا إلا إذا آذونا..

وضـع مليجي يده على قلبه، أغمـض عينيه ثم زفر بعمق، قال وهو على هذا الوضع:

- كـدت أموت من الرعب، أخفتنـي حقًّا، أنا حتى الآن لا أصدّق، هووووف.

- أنا فقط كنت جائعًا.

قال نسناس.

هنا كان يحق لمليجي أن يرتاب مجددًا، إلا أن النصف بدّد مخاوفه عندما قال:

- ورأيت أن معك بُقجة..

تنهّد مليجي مجددًا، ورفع زجاجة عصير القرنبيط إلى فمه، ثم أخذ وجهه يتكرمش ويتغضّن، وهو يسمع تعليق نسناس:

- فقلت فلأجعل الإنسي يأكل كل ما في بقجته، ليسمن أكثر، فيكون صيدًا ثمينًا لي، يكفيني أنا وأولادي!

شَرِق مليجي، وسعل كثيرًا، وراح نسناس يخبط على ظهره، وهو يعتذر عن مزاحه الثقيل، ويؤكّد أنه لن يأكله أبدًا.

-3-

قال نسناس:

– نحن الشِّق، سكّان القفار، وجيران الخلاء، نعيش بين الحراصيد وأباشيريا، وُجدنا هنا منذ آلاف السنين، بعد أن تزاوج البشر الجنوبيون بالجن من سكّان جزائر اليمّ، فنتج الشق عن ذلك التزاوج..

مضغ نَسناس كسرة «المقرضة» بنصف فكّه، ثم أكمل قائلًا:

– نزحت سلالة الشِّق المُتشيطنة إلى صحراء القِفر، واعتادوا أن يهيموا في البوادي، ويحرسوا مضاربهم، ويفزّعوا المسافرين ليلًا، ويقتاتوا على مخلّفاتهم وبقايا طعامهم، وفضلات حيوانات الصحراء، ومنهم مَن يأكل الإنسان، عملًا بتقاليد عريقة وبالية، كانت تُبيح للشِّقّي أكل الإنسان في حالات المجاعة والرمادة والمصاب والحرب.. ولا يحتاج الشقّيون للأصوات والكلمات للتواصل، فالجانب المُتشيطن منهم يمنحهم تلك القدرة على نقل الأفكار في الهواء.

«مثل الراديو». قال مليجي.

«ما الراديو؟»، سأل نسناس.

بعد ثانيتين من التفكير، قال مليجي:

- جهاز ينقل الأصوات عبر الهواء، بالضبط كما تنقلون الأفكار.

ثم أضاف متسائلًا:

- لكن هل تستطيع أن تقرأ أفكاري؟

مجددًا ابتسم نسناس الشق، وأجاب:

- الشق لا يعرفون ما الذي يدور في رؤوس الإنس، ولا رؤوس الشق، ولا أية رؤوس. نحن فقط نتحدّث إلى بعضنا البعض بلا كلام، ننفخه في الهواء.

تساءل مليجي إن كان الشق يتزاوجون ويتكاثرون مثل بقية خلق الله، وكيف يكون ذاك التكاثر؟ هل يبحث نصف أيسر ذكر عن نصف أيمن أنثى ويلتحمان فيكونان شخصًا واحدًا؟ وهل سيكون ذلك الشخص خنثى؟ أم سيطغى أحدهما على الآخر ويسود؟ أراد أن يسأل نسناس، إلا أنه أحجم، فلربما يكون ذلك غير لائق. لذلك قدّم سؤاله في صيغة مهذّبة:

- هل لديك أطفال؟

ابتسم نسناس وأجاب:

- ليس لديّ أطفال.

واصل مليجي فضوله:

- هل أنت متزوّج؟

رد نسناس:

- لا. أنا متربّع.

وشرح لمليجي عملية الرباع، المعادلة للزواج عند بقية الكائنات، فالتزاوج بالنسبة للشقّ لا يحدث بين شخصين، ولا حتى ثلاثة، بل أربعة، أربعة أنصاف. في البداية، يولد الشقّي نصفًا، ومنذ ميلاده حتى سني النضج الأولى - يسمّونها مرحلة التخصّي، لأن الخصية الوحيدة التي يمتلكها الشقي تكبر وتنتفخ، وهي بالمناسبة العضو الوحيد المفرد المكتمل في جهازه التناسلي، فالباقي أنصاف - يقضي الشّقي تلك السنوات في البحث عن شريك ذكر، يكون بينهما قبول وألفة، ويتفقان أنهما سيلتحمان عندما يصلان لسن الرباع ليتمكّنا من الممارسة الجنسية بقضيب مكتمل.

بعد مرحلة التخصّي، تأتي مرحلة الرباع، والتي يحاول فيها كل نصف ذكر من الاثنين، أن يجد شريكة أنثى، وعلى هذه الشريكة الأنثى أن تجد شريكة أنثى أيضًا لتلتحم بها، فتصير قادرة على معاشرة الشق الذكر النصف، الملتحم بدوره بشريك ذكر آخر.. وبسبب هذا التعقيد، تناقصت أعداد الشق في أرض اللابوريا بمرور الوقت؛ لأنه

- وفقًا لنسناس - من الصعب جدًّا أن تجمع أربعة شقيين، لهم الميول والأمزجة والقدرة نفسها على التفاهم..

سالت ريالة مليجي، وهو يستمع بفم مفتوح إلى تفاصيل الزواج الرباعي العجيب، وفكّر في أنه يجدر به تدوين مغامراته، ويجدر به أيضًا أن يكتب ثبتًا بأسماء الكائنات العجيبة، التي قابلها في أرض اللابوريا. فكّر كذلك في أنه محظوظ وممتن، لأنه لا يقابل في طريقه إلا أولاد الحلال، الطيّبين، الذين يأخذون بيده ويقدّرون مأساته كغريب ضائع في هذه الجغرافيا الغامضة.

قال نسناس، وهو يشير إلى مكان وراء مليجي:

- انظر خلفك.

استدار مليجي فوجد ثلاثة أنصاف آخرين، منهم اثنان يمين وواحد يسار، أنثيان وذكر. قال نسناس لأحدهم:

- أعطِ مليجي سيجارة.

دارت عينا مليجي في محجريهما، وهو ينظر بدهشة إلى نسناس الذي عقّب مبتسمًا:

- ما أحوجك إلى سيجارة، أي سيجارة، شيءٌ ما يقول لي إنك بحاجة إلى سيجارة.

-4-

كان لمذاق السيجارة الشقّية طعم غريب في فم مليجي ومنخريه، بدت كما لو كانت مصنوعة من أوراق أشجار شديدة المرارة، «صبّار القفر» كما قال نَسناس. وبغض النظر عن مذاق السيجارة، فإن مليجي دخّنها بمنتهى الامتنان، إذ كان بحاجة فعلية لسيجارة.

لم يكن الشقّيون يتكلمون، واكتفوا بإصدار همهمات بالكاد يمكن لمليجي أن يسمعها، ولذلك، اضطر من حين لآخر أن يقول كلمة، أو يلقي سؤالًا، يكسر به حاجز الصمت، ويتهرّب به من سكون الصحراء. في البداية سأل عن أسماء الشقيين الثلاثة، ثم استفسر عمَّا إذا كانوا مترابعين. وأخيرًا سأل عن المسافة المتبقية له؛ حتى يصل إلى جبل التخوم، وفقًا لسرعة سير الإنسان. بدوره كان نسناس يجيبه بكلمات مقتضبة، ثم يعود لصمته، مواصلًا همهماته، هو وبقية الشقيين الأنصاف، الذين انشغلوا بالتهام وشرب كل ما كان في الزوّادة، قبل أن يقوم أحدهم بإفراغها من محتوياتها، ويشرع في نهش قماش الزوّادة نفسها، أمام عيني مليجي الذي قال لنفسه: «يا للجياع المساكين!»، وآثر الصمت والسلامة.

فـي البدايـة، سـادت أصوات خرفشـة كسـرات المقرضـة وتمزّق قمـاش الـزوّادة تحت ضروس وقواطع الشـقيين، أعقـب ذلك فاصل معقـول من الهمهمـة المختلطة بصفير الرياح، قبل أن يسـود الصمت المريـب. كانت الصحـراء كلها بلا نأمة واحدة. لـم يقطع تلك الحالة سـوى الهجوم المفاجئ علـى مليجي من قِبل الشـقيين الأربعة. فجأة وجد نفسـه مكبّلًا بأربعة أيادٍ قوية، نسـناس الشـق يمسك يده اليمنى، وكل واحـد مـن الشـقيين الآخرين يمسـك بطـرف من أطرافـه، بينما يلحسون أنصاف شفاههم بأنصاف ألسنتهم. صرخ مليجي وحاول أن يرفّس، وكانت شـمس القِفر تكاد تخـزق عينيه، واللعاب المتطاير من أفواه الشقيين يتناثر على وجهه.

قرّب نسناس عينه الوحيدة إلى عين مليجي بشكل مرعب، ثم سأله وهو يحدّق في بؤبؤه ويلحس وجهه:

- أخضر في السوق وأحمر في أمك؟

وواصـل لحـس كامل محيـط وجهـه. ومليجي المرتعـب لم يكن يفهم سر الانقلاب المفاجئ من الشقيين. فقال بمسكنة حقيقية:

- ماذا تريد يا نسناس؟ لماذا غدرت بي؟ هل آذيتك في شيء؟

شهق نسناس ثم عاود التحديق واللحس مجددًا وقال:

- لـك ثلاث محاولات فقط يا إنسـي. إذا لم تحل الأحجية، يحق لي شرعًا أن آكلك.

ثم قال مضيفًا:

- أخضر في السوق وأحمر في أمك؟

لم يكن مليجي في وضعية مريحة للتفكير، حيث كان محاصرًا بالأنصاف الأربعة، مبطوحًا على ظهره، مقيّدًا بقبضات تكاد تشرخ عظامه، لذلك صاح دون تفكير، مكتفيًا باللونين الأحمر والأخضر كشفرة للأحجية:

- البطيخ.

ضحكة شريرة انفلتت من نسناس، أعقبها فاصل من اللحس، علاوة على أن الثلاثة الآخرين بدأوا في الشمشمة. قال نسناس:

- الحنّاء خضراء في السوق وحمراء في أمك!

لوهلة، فكر مليجي أن يشرح لهم تاريخه الأسري الحزين، ويستعطفهم بحقيقة أن أمه ماتت شابّة في الخامسة والعشرين، وكان لها شعر أسود فاحم طويل ومنسدل حتى عجيزتيها، فلم تحتج أبدًا للحنّاء، لكن الموقف العصيب جعله يتجاهل مثل تلك الطعون والسفسطات، وتلقّى السؤال الثاني من نسناس:

- أسود وليل وما هو بليل، له جناحان، وما هو بطير، وإذا تليت خِطامه، تحطّمت عظامه؟

هذه المرة، وفور أن تأكّد مليجي أنه لا يعرف الإجابة، دفع بطعنه مباشرة، وأكد لنسناس الشق أن لهجته تختلف كثيرًا عن لهجة المدينة

التي جاء منها، وأنه لا يفهم معنى (تليت خطامه)، إلا أن نسناس لم يلتفت لتلك الاعتراضات، ولحس وجه مليجي مرة أخرى، بينما بدأ واحد من الأنصاف في إصدار زمجرة حيوان لاحم، على وشك التهام فريسته. قال نسناس:

- بيت الشعر.

أيقن مليجي أنها النهاية، سيموت منهوشًا بأنياب هذه المخلوقات، التي تكبّله وتلحسه. قال نسناس:

- لا جناح ولا ساق، وتطير أسرع من بُراق؟

ضرط مليجي عندما تأكّد أنه لا يعلم حل الأحجية الأخيرة، ضرط رعبًا، وبكى وصرخ ورفّس، وفيما يبدو فإن رائحة فسائه كانت نفّاذة بفعل عصير القرنبيط. لذلك أشاح نسناس بوجهه بعيدًا عن مليجي وهو يزمجر:

- ملعون أبو ريحك الخامجة!

في هذه اللحظة تحديدًا، فكّر مليجي في أن فسيته لا جناح لها ولا ساق، إلا أنها طارت من فوق الأرض وصولًا إلى أنف نسناس. فكّر كذلك في كلمة «ريح» التي قالها الشقّ، التمعت عيناه «مثل هذه الفرص لا تتاح إلا مرة واحدة في العمر»، هكذا قال لنفسه وهو يتلقّف الهدية التي ألقاها له خصيمه. أخذها من على طرف نصف لسان نسناس الشق، وأعاد تدويرها مباشرة إليه:

- الريح العاصفة.. العاصفة لا جناح لها ولا ساق، وتطير أسرع من بُراق.

«هل هي العاصفة حقًّا؟»، سأل مليجي نفسه، منتظرًا أن ينغرس نابٌ في وجهه، أو أن يبدأوا بالتهامه من خصيتيه مثلًا، إلا أن ذلك لم يحدث، لأن نسناس أرخى قبضته فجأة عن ساعد مليجي، وبالمثل فعل الشقّيون الآخرون. وقد عوى أحدهم من الحسرة، ثم قام يحجل بساقه الوحيدة مبتعدًا في الصحراء.

لام نسناس نفسه، ولامه أصحابه؛ لأنه أهدر وجبة دسمة من بين أيديهم، قال لمليجي بحسرة وعينه تلتمع بالدمع:

- هي العاصفة.

ثم نهض، فنهض أصحابه، وبدأوا بالقفز مبتعدين عن مليجي، وغابوا في المدى.

-5-

الخريطة والبوصلة فقط هما كل ما تبقى لمليجي، بعد أن أفلت من الشق، طوى الأولى تحت إبطه، وعلّق الثانية في عنقه، وانطلق يركض بكل ما أوتي من قوة، ليخرج من صحراء القفر، قبل أن يصطاده أنصاف آخرون، ربما يكونون أقل احترامًا لتقاليد الأحاجي من نسناس وجماعته.

ساعات لم يُحصِها مليجي قضاها في الركض، صوب أباشيريا، هاربًا من سكّان القِفار المخيفين. وبعد أن انتصفت الشمس في كبد السماء، بدأ مليجي يشعر بالعطش، فتباطأ في الركض، وخفَّف من سرعته إلى الهرولة، ثم إلى المشي، فعل ذلك بعد أن تغيّر لون الرمال تحت قدميه، وبدأ الحصى في الظهور، فعرف أنه اقترب كثيرًا من سفح جبل التخوم.

-6-

«لـم آتِ إلـى هنا قاصدًا، لم أكن الأنسـون المرجـو والمأمول، لم أتسبب في هزيمة الحراصيد الظهوريين، ولا دخل لي بأحاجي نسناس الشق.. وها أنا أكابد لأصل سليمًا إلى بلاد، لم أرها من قبل ولا أرغب في السفر إليها.. مَن يفرض عليّ كل ذلك؟ من أنت؟»

كانـت الشـمس في كبد السـماء، تحمّص عظـام جمجمته، وتقلي مخّـه في رأسـه، شـعر بعطـش بالـغ، وخمّن أنـه إن لم يشـرب خلال سـاعة علـى الأكثر فقـد يقضي نحبه، وتذكّـر أن الشـقيين كانوا بُخلاء أكثر من اللازم، ولـم يسـتضيفوه إلا بسـيجارة ورق الصبّار، بل وزادوا علـى ذلك فأكلوا قُوْتَه والتهموا زوّادتـه، بينما تصرّف الحراصيد على العكس من ذلك، وأمده غندور بن هنكال ببعض المؤن! لذلك أحس بالذنـب؛ لأنه لطالما احتقر الحراصيـد وازدراهم، كان يكره روائحهم وقناعاتهـم الراسـخة وغير القابلـة للخلخلة، ورآهـم قبيحي الملامح بسـبب «خلطتهم الجينية غير المتجانسـة» على حد وصفه. إلا أنه في

هذه اللحظة بالذات، وتحت شمس صحراء القفر، يدرك جيّدًا أن حياة الحراصيد كانت حياة رخاءٍ ودعة.

بـدأ مليجـي يفقـد اتزانه بفعل جفاف لسـانه وجوفه، ودعـا الله أن يهديـه إلـى نبع مـاء، أو بئـر مردومة، أو حتـى صخرة تنبثـق المياه من قلبها. غير أنه عاد وقال لنفسه إن الدعوات لن تصل إلى السماء، وإنها ستحترق قبـل أن تقطـع حتى منتصف المسـافة نحو السـماء الأولى، بفعـل الحـر القاتـل. كان قد وصل إلـى مرحلة الزحف، لـم يعد قادرًا على الوقوف منتصبًا، ناهيك عن المشـي. الرمال الساخنة تسلخ بطنه، وحبيبـات الحصى الحـادّة تمزّق ملابسـه وتلهب جلده الذي تقشّـر، وبلـغ الأمر أقصاه عندما بدأت النسـور تحوّم حوله، باعتباره مشـروع جثة صالحة للنهش. وسـبحان مسبب الأسـباب، فالنسور ذاتها، التي كانـت تنتظـر موت مليجي، هي التي أمدته بسـؤال الحيـاة: لا بد لهذه الطيور من مصدر للماء!

اسـتجمع مليجـي ما تبقى مـن قواه. قـرر أنها محاولـة أخيرة على الطريق، وأنها إمّا المجد أو الشهادة، وانطلق يتعقّب أنثى النسر، فراقبها مندسًّـا فـي فتحـات ضيقة فـي الصخور، وحفـر مموّهة فـي الأرض، ومختبئًـا وراء شـجيرات صحراوية جافّة وشـائكة. لا شـيء يمكنه أن يصف نضال مليجي لساعات وهو في أسوأ أحواله، ليعثر على مصدر المـاء الذي ترتوي منه أنثى النسـر، وبعد عناء وصـل إليه بالفعل، كان

خيطًا رفيعًا من الماء البارد، ينسرب عبر ثقب في صخرة تقع على مقربة من سفح جبل التخوم. شرب مليجي حتى ارتوى، وغمر وجهه وشعره بالماء، شعر بالشقوق في جلده وهي تلتئم، لكنه لم يقف عند هذا الحد، وقرر أنه لم يأخذ كفايته من الماء، فخلع ملابسه بالكامل، وبدأ في الاستحمام من خيط الماء الرفيع.

كانت الشمس توشك على المغيب، إلا أن الأفق لا يزال مضاءً، وكان الماء يغمر عيني مليجي، ويغسلهما من رمال الصحراء التي كادت تخزقهما.

قبل أن يجفف مليجي وجهه بملابسه، وقبل أن تتضح له الرؤية، تناهى إلى أذنه صوت فحيح خافت. سحب نفسه من تحت الماء بخفّة، وسرعان ما راقت عيناه، ليجد نفسه واقفًا أمام أفعى يناهز طولها طوله، لكن المميز فيها، أن في كل طرف من طرفي جسدها الأسطواني رأسًا، يبخ السم، وأنيابًا تنهش ضحاياها.

كانت تلك أفعى القُهيْقران المعروفة أيضًا باسم «الزاحفة في الاتجاهين».

-7-

لـم تتح الفرصـة لمليجي كي يلتقط ملابسـه أو الخريطة، لأنه كان قد أسـلم سـاقيه للريـح، وانطلق يركض صـوب الجبل، بينمـا تلحقه الأفعى بمسـافة بسـيطة، تارة تزحف على بطنها، وتارة ترتكز برأسـيها علـى الأرض وتقفز وكأنها لعبة نـط الحبل. فقط بقيت البوصلة معلقة فـي عنقه تتمايل مـع اهتزازاته العنيفة، فقبض عليهـا بيده لكيلا تنخلع من عنقه، وواصل الركض الجنوني. ثلاث ساعات من الركض عاريًا، كفلـت له الإفلات من القُهيْقران، لاسـيما بعـد أن تباطأت الأفعى عن دخول جبل التخوم وراءه. وفي الوقت عينه، أجبرته حالة الهروب التي وجد نفسـه فيها، على ارتكاب تصـرّف غريب وغير لائق، لأن مليجي دخل جبل التخوم عاريًا، الأمر الذي أثار اندهاش سكّان الجبل.

العبُور من جَبَل التُّخُوم

-1-

تأكّد مليجي أن القُهيْقران لا تتبعه، فتوقّف ليلتقط أنفاسه بينما يفكّر في أن الأفعى الزرقاء المرقّشة بالأخضر والأسود امتنعت عن مطاردته؛ لأن جسدها لا يسمح لها بتسلق الصخور بشكل رأسي، مثلما فعل هو في معرض فراره منها.

بعد فترة كان قد هدأ، وانتظمت أنفاسه واستقرّت طرقات قلبه، وكانت مشكلته الجديدة التي بدأت تشغل تفكيره هي احتمالية إصابته بالتهابات رئوية بسبب تعرّقه عاريًا؛ مما قد يعرّضه لنوبة من الحمّى.

نظر مليجي إلى الشمس فوجدها مستقرة في وسط السماء، فكّر في أن يستغل وجودها، وبدأ في تجميع أوراق النباتات الصغيرة التي تنمو في الجبل، وكوّن تلًّا كبيرًا من أعواد نباتات برية لا يعرف فصيلتها، ثم فتش في الأرض عن صخرة ذات طرف حاد، ولما وجدها استخدمها في خلع الواجهة الزجاجية لساعته دون أن يتلفها، وخلع الواجهة الزجاجية للبوصلة أيضًا، وأمسكهما في وضع عمودي تحت الشمس مباشرة، خط من الضوء تم تركيزه بالزجاج المحدّب للساعة، ومنه

إلى الزجاج المحدّب للبوصلة، ليتضاعف الخط ويتكثّف فوق كومة العيدان فتشتعل النباتات التي جمعها من الجبل، سرى فيها اللهيب، فأهال مليجي عليها بعض الوريقات التي عملت على تأجيج النار.

وهكذا قرر أن يقضي ليلته الأولى في مدخل الجبل: عاريًا، بائسًا، وحيدًا، ومؤتنسًا بالنار، التي سيطعمها المزيد من الأوراق والعيدان لتبقى متأججة طوال الليل.

-2-

كـف مليجـي عن حسـاب الوقت، لا يهـم كم مضى مـن دقائق أو ساعات أو أيّام، فالأهـم بالنسبة إليه الآن هو أن يتجهّز للحاضر، الراهن العجيـب، ويسـتطيع أن يصمد إلـى الغد، «كل طلعة شـمس انتصار»، هـذا ما جـال في باله، وهو يجلـس وحيدًا أمام النـار، يراقب ليل جبل التُّخوم، ويحاول أن يحافظ على يقظته حتى صباح الغد.

لكن في الحقيقة، كان مليجي مرهقًا جدًّا، فقد غادر بلاد الحراصيد قبل ثلاثة أيام، ومشـى طويلًا في الصحراء، وأفلت من نسـناس الشق، ثـم فر من القُهيقران، ومر بأوقات ليسـت ظريفة أبـدًا، لذلك ربما كان يغفو لثوانٍ، تنحني رقبته، وتنسدل جفونه، ثم يزعجه شخيره فيستيقظ سريعًا، ويلقي بنظرة خاطفة على محيطه ليتأكّد أنه لا يوجد أحد هناك. عندمـا لاحظ غفواتـه المتكررة، فكّر فـي أن عليه إيجـاد طريقة للبقاء متيقّظًا، ولـم يجد حلًّا أسـلم من أن يقف ويتمشّـى حول النار، وبالمرّة يلقي نظرة على الجوار.

ألقى بعددٍ من الأعواد الجافّة في النار، ثم صنع مشـعلًا صغيرًا من ثلاثـة أعواد. خزّن الكثير من أوراق الشـجر في تجويف بصخرة قريبة لكيلا تذروها الريح، ثم نهض وتقدّم في الجبل.

لا شيء على الإطلاق، لا شيء سوى الرياح تصفر في ثنايا صخور الجبـل، والكثيـر من الظلام الـذي يخفف من عتمته القمـران الصغير والأصغـر، حيـث لا يـزالان بدريـن، إلا أنهمـا تناقصـا قليـلًا. توغّل مليجـي أكثر في الجبل، حتى اختفت أنوار النار خلف ظهره، وخشـي أن يفقدهـا حتى الصباح، فعاد سـريعًا إليها، وذكّاهـا بإلقاء المزيد من الأعواد، ثم مد يده في التجويف الصخري؛ ليجمع حفنة أوراق شجر لتؤجج النيران، لكنه صرخ فجأة، بعد أن شعر بالوجع الحاد يسري في إصبعه. كانت تلك عضّة، تلقاها، من قلب التجويف.

تقافز مليجي، وابتعد هاربًا عن التجويف الصخري، رفع يده قرب وجهه ليرى أثر اللدغة، ثم بدأ يشـعر بالدوخة والزغللة، قبل أن يسقط قرب النار، فاقدًا للوعي.

-3-

كان يعـرف أنه نائم، لكنه أراد أن يستفيق؛ لأنه فقد الحلم في نوبة القلـق والانتباه. أصوات مبهمة كثيرة كانت تختلـط في أذنيه، لكنه لم يكـن يقـوى على التفكير فيهـا، أو التعرّف عليها. تهيّأ لـه أنه في مغارة عميقـة، ورأى نفسـه وهـو يركـض نحو فوّهـة النور فـي آخرها، حتى وصـل إليها، ففتح عينيه، ووجد نفسـه في مغـارة بالفعل، مغارة عامرة بهؤلاء الملثّمين المجهولين، وفي آخرها فوّهة النور.

انتبه واحدٌ منهم إلى استفاقة مليجي، أشار للآخرين، انتبه الجميع لمليجـي، رفع بعضهم بنادقهم صوبه، وهـم يصرخون بأصوات عالية ويقتربون منه، رفع مليجي يديه علامةً على استسـلامه، وهو يرتعد من أصواتهم المدوّية، فصرخ الملثمون وازدادوا قربًا منه. بعضهم أخفض بندقيتـه، وآخـرون ظلوا يقتربون وهم يشـهرونها، وأول مَن وصل إليه سأله بصراخ مخيف:

– من أنت؟

متلجلجًا قال:

- مليجي. إنسان قادم من ناحية الحراصيد.

- واش تطلب فِ جْبَلّ؟

لم يفهم مليجي ما قاله الملثّم، فرد ببراءة:

- عفوًا!

من فوره أطلق الجبلي الملثّم عيارًا ناريًا في أحد جدران المغارة، وقال بصراخٍ أعلى وغضب عارم:

- قلت واش تطلب فِ جْبَلّ؟

الذعر، تكفّل بإفهام مليجي، أدرك بسبب دوي الرصاصة أن الجملة الأخيرة سؤالٌ عن أسباب تواجده في الجبل. أجاب وهو يبكي:

- مسافر يا سيدي. مسافر إلى أباشيريا، هربت من الحرب في بلاد الحراصيد. أرجوك ارحمني..

بقي الملثّم رافعًا بندقيته، بينما عيناه تلمعان في ظلام الكهف، وظل الآخرون متحلّقين حوله، يراقبونه، وبقي عدد قليل منهم يصوّبون بنادقهم ناحية رأس مليجي. بقي الوضع هكذا لثوانٍ، قبل أن يخفض الملثّم الغاضب بندقيته. تبعه الآخرون، وانفضّ بقية الملثمين. عاد كل إلى ما كان يفعله، وهدأت الأصوات. فيما بقي الملثّم الغاضب واقفًا بالقرب من مليجي مع عدد قليل من الملثّمين.

-4-

قـدّم الملثّم إلـى مليجي زلطة مجوّفة وناعمة، تتّخذ شـكل كوب، مليئة بسائل أسود تتصاعد منه الأبخرة، وقال:

- تاي يا ضيف جُبَلّ!

تناولهـا مليجـي بكلتـا يديه، فكادت سـخونتها تسـلخ جلـد كفّه. وَخوح ووضعها بسرعة على الأرض، بينما صدرت ضحكة خشنة من الملثّم وقال:

- كل قومك يفعلون كمثل فعلتك، هه.. مساكين الناس.

بعد سـاعتين، كان التـاي - والذي اتضح أنه منقوع صخر مبشـور مالح وسـاخن - قد برد قليـلًا، وكان مليجي قد كوّن فكرة معقولة عن الجباليين، عبر دردشة مع لازَورد وَلَد صوّان، قائدهم وكبيرهم.

-5-

هرب أسلاف الجباليين من البلدان القريبة، كانوا في أغلبهم من الأشقياء المطلوبين للعدالة، ممن صدرت في حقهم أحكام بالحبس والجَلد والصلْب والحرابة وجدع الأنوف وتكسير الأصابع وسمل العيون، كلّ بما يتناسب مع جريمته، ولم يجدوا ملاذًا يلجأون إليه أنسب من جبل التخوم القاحل، والواقع بين صحراء القفر، والحدود الجنوبية لأباشيريا، فعاشوا فيه، مطاريد من أوطانهم متخفّين عن الأنظار في المغاور والكهوف.

في الجبل، لم يجد الجباليون الأوائل شيئًا عدا الصخر، الصخر بكل تجلّياته، رمال وأتربة وحصى وزلط وجلاميد ورخام ورواهص. كذلك وجد الجباليون أحجارًا كريمة ونفيسة، كالزمرّد والياقوت والألماس والعقيق. لم يكن هناك مفر من تفاعل الجباليين مع الجبل، والتوحّد معه، والاختلاط به، والفناء فيه، هذا ما حدث حسب لازورد ولد صوّان. لقد تصخّر الجباليون الأوائل، وصارت أجسادهم ذات ملمس حجري، وبمرور السنوات، اكتمل تحوّلهم، وصاروا سلالة مستقلة، «من الجبل وإلى الجبل، من الأرض وإلى الأرض»، حسب

وصف زُمرّدة بنت صخر زوجة لازورد، وهي ملثمة مثل الجميع، ولها صوت يشبه أصوات رجال الأرض، وقد انضمت للجلسة.

سأل مليجي:

- أنتم صخور إذًا!

ردَّ لازورد:

- ما صخور فحسب، لم ننسَ جذورنا الأُناسيّة أبدًا، لذلك ما نزال نرتدي الثياب مثل أسلافنا الأوائل.

فتساءل مليجي:

- ومن أين تأتون بالثياب؟

- نهبشها من المسافرين في جُبَلّ بعد أن نقتلهم رجمًا بحجارة.

تذكّر مليجي أنه دخل الجبل عاريًا بالكلّية، وأدرك أيضًا أنه يلبس خرقة قماشية ممزّقة، تساءل: «كيف لم أنتبه لذلك؟». بدا الاضطراب واضحًا عليه، فقالت زُمرّدة:

- وجدناك عاريًا، عرفنا أنه ما حاجة لنا بك، أنت أفقر مَن حطَّ قدمًا في جُبَلّ وأكثرهم بؤسًا. رَصَدَتك هوام الحراسة، وقرصتك وأحضرتك إلى هنا بأوامر من الشيخ لازورد، ولما شفناك عرفنا أنك هارب، مطرود مثل أجدادنا، فأشفقنا عليك، وسنسمح لك بالعبور!

تنفّس مليجي الصعداء وتهلل وجهه، شكر الشيخ لازورد وزُمرّدة ودعا لهما بالعمر المديد.

-6-

صبيحة اليوم التالي، كان مليجي يستعد للرحيل من مغارة الجباليين، جهّزت له زُمرّدة قماشة وملأتها بأعشاب الجبل وبعض فتات الرمل ومجموعة متنوّعة من الأحجار، شرحت له فوائد كل منها. ثم استأذنت لتجهّز له وليمة صغيرة يتقوّى بها على الطريق.

كانت بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام تناوشه منذ الليلة السابقة، فقرر أن يستثمر وجوده مع الجباليين للظفر بإجابات واضحة ليدوّنها في ثبته المزمع لتوثيق المخلوقات والأقوام، التي قابلها من سكّان أرض اللابوريا، فتوجّه بحديثه إلى لازورد:

– لو سمحت يا شيخ الجبل، عندي بعض الأسئلة، وأتمنى أن يتسع صدرك لفضولي وتتكرم بالإجابة عنها، وأوّلها: لماذا لا تخلعون الألثمة أبدًا؟

ضحك لازورد بصوتٍ حجري دوّى في المغارة كلها، ثم قال بطريقة العارف ببواطن الأمور:

– ما قابلت واحدًا من الناس ما سألني هكذا سؤال.

هرش، وكأن له بشرة حسّاسة، ثم مد يده الصخرية وأمسك بيد مليجي ووضعها على اللثام، وقال له:

- انزعه!

بقي مليجي على وضعه، يده على لثام كبير الجباليين، بينما لا يجرؤ على شدّه. لذلك عاود لازورد توجيه الأمر له، ولكن بصيغة أكثر صرامة وصوت أعلى:

- انزعه نقول لك.

تلقائيًا بدأ مليجي يشد اللثام برفق، ثم بقوة أكبر، لكنه لم يتزحزح عن وجه لازورد الذي مدَّ يده مجددًا وأمسك بيد مليجي وأبعدها عن وجهه ثم قال:

- يولد الجبالي بوجهٍ صخري خام، وعند سن البلوغ تنبت الألثمة في صدوغنا خيوطًا ورُقْعات، ومع الوقت تنتسج مكتملة حول الوجه. اللثام جزء من الجبالي، وهو جزء من تاريخ أجدادنا المطاريد.

ابتسامة واسعة كست وجه مليجي، بعدما فهم لماذا يحتفظون به على وجوههم ليل نهار، ثم وجّه سؤالًا خبيثًا:

- وماذا تفعلون بالأحجار الكريمة إذا كنتم لا تغادرون الجبل؟

رد لازورد:

- في الأيام الطيّبة يقدمها شبابنا المقبلون على الزواج مهرًا للعروس، وفي أيام الكرب نسحقها ونأكلها، قيمتها الغذائية فوقانية.

كانت زمرّدة قد وصلت بصحن صخري للإفطار، وضعته أمام زوجها مغطى بقماشة ثم انضمت للجلسة. بينما واصل مليجي تساؤلاته:

- ولماذا لا تقيمون دولة مثل الحراصيد والأباشير؟

قال لازورد:

- نحن أبناء المطاريد والجبل، ورثنا عن الزمرة الأولى الرغبة في التخفّي، وعن الثانية الانعزال، والدولة تحتاج إلى علاقات خارجية وتجارة وربما حرب، ونحن ما نرحّب بذلك أبدًا.

هزَّ مليجي رأسه علامة على الفهم، ثم قال:

- سؤالي الأخير يا شيخ لازورد.. في طريقي إلى الجبل طاردتني أفعى قهيقران، إلا أنها لم تتبعني إلى الجبل، لماذا؟

هنا ابتسمت زُمرّدة، ومدت يدها لتكشف عن مكوّنات الصحن الصخري، ولدهشة مليجي، وجد أفعى قهيقران مسلوقة ومسلوخة وغارقة في الحساء. أجفل مليجي، وابتسم لازورد قائلًا:

- عساك تعرف الإجابة الآن.

أجاب مليجي:

- نعم صرت أعرف. لكن هل هي سامّة؟

ردّت زُمرّدة:

- نزعنا سمّها لك يا بن الناس، أقبل.

بدأ مليجي في تذوّق الحساء فوجده لذيذًا، ثم مضغ قطعة من لحم القهيقران فوجده طريًّا وطيّبًا.

-7-

قبيل رحيله، أشار لازورد إلى صدر مليجي وسأل:

- واش تكون هذي؟

رد مليجي:

- إنها بوصلة.

عاود لازورد:

- واش البوصلة؟

فأجاب مليجي:

- تمكّنني من معرفة الاتجاهات، لقد أنقذتني عندما كنت في صحراء القِفر، أهداني إياها صديقي غندور بن هنكال من الحراصيد.

ثم خلع البوصلة، وأعطاها للازورد ليعاينها، وقد بدا الانبهار واضحًا في عينيه من وراء اللثام.

قال لازورد:

- هي لي!

ابتسم مليجي، وقال ضاحكًا:

- وما حاجتك لمعرفة الاتجاهات، وأنت لا تغادر الجبل أبدًا؟

لكن الإجابة التي تلقاها أخافته كثيرًا، إذ قال لازورد بعصبية:

- وأنت قد لا تغادر جُبَلّ أبدًا!

اتسعت عينا مليجي وقد بدا عليه الذعر، خاصة عندما علّق لازورد البوصلة في عنقه، ثم أشار صوب مدخل المغارة مخاطبًا مليجي:

- خطٍّ من إهنا.. اركض!

فانطلق مليجي يركض بأقصى سرعته فارًّا من تهديدات لازورد ولد صوّان بالبقاء في الجبل إلى الأبد.

الحُب في أباشِيريا

-1-

مالت الشـمس في السماء، وخمّن مليجي ناحية الشمال قياسًا إلى موقعها، وواصل المسـير، بينما انشـغل ذهنه في أمورٍ كثيرة، ففكّر في عالم الجباليين، ولهجتهم الوعرة الخشنة، وألثمتهم التي صارت جزءًا لا يتجـزّأ من وجوههـم، في طفرة جينيـة وصفها بالأُعجوبـة.. وقبيل الغروب بقليل، في المدى البعيد، لاحت أباشيريا.

تمهّل مليجي في خطوه، وراح يسـتعيد كل ما يعرفه عن الأباشـير: «قبائـل بدوية، تعيش فـي صحراء كبيـرة، يأكلون الجـرذان والأرانب البرّيـة والقنافـذ والعقـارب والثعابين والسـحالي والضبـاب والظباء، ويتمركزون حول سبعة آبار».

هـذا ما قاله غندور بن هنكال. توقّف مليجي ليتأمّل اليافطة الكبيرة على حدود المدينة:

«أهلًا بكم في ولاية العرين

سلطنة أباشيريا»

تنبّه إلى أن تلك كانت أول يافطة يراها في كل الأصقاع التي زارها من أرض اللابوريا، تحديدًا في الشطر الجنوبي منها. أوحت له اليافطة بأن غندور بن هنكال كان مبالغًا، فالأباشير في النهاية أهل قراءة. لكن ذلك لم يمنعه من أن يحتاط، فأخرج من الزوّادة التي أعطته إياها زمرّدة بنت صخر، سكّينًا منحوتة من الرخام، أخفاه في ثيابه، تحسّبًا لأي طارئ. ثم واصل المسير.

كان أول ما رآه مليجي في أباشيريا، أكواخًا خشبية تشبه تلك التي كان يراها قديمًا في أفلام الغرب الأمريكي، صفّين متقابلين من المحلات، وبعض الأباشير يتسكّعون أمامها، ويدخّنون تحت المظلات المعلّقة أو المنصوبة أمام المحال. كان الواحد منهم لا يفرق كثيرًا عن الرجل العادي، غير أن لهم لحى غريبة وكثّة تشبه شعر الحيوان، بعضها أحمر وكثيف وطويل كلبدة الأسد، وآخر قصير أسود عند المنبت وأبيض عند الأطراف، وأشكال أخرى عجيبة، لم يسبق لمليجي أن رأى مثلها أبدًا.

أراد أن يخمّن كيف تبدو نساؤهم بهذه الوجوه المشعرة، إلا أن انطلاقة قوية لرجل صغير كالثعالب، هروبًا من أحد المحال، لفتت نظره وشغلته عن التخيّل. الرجل الضئيل ارتطم بمظلة خشبية أمام المحل وسقط أرضًا، لكنه نهض بسرعة رهيبة واستمر في الجري، ثم سمع مليجي الشتائم تندلع وراءه من المحل، طوفان من السباب

والردح أطلقه الأباشيري ذو اللحية المخططة، كالنمر، الذي خرج من المحل:

- اجرِ، اجرِ يا مخنوث يـا مؤخّـرة الحرصود، اهرب يـا ابن دين البشر، يا وسخ يا ابن الحرام، فكّر أن ترجع إلى هنا وسأبقر بطنك.

فجأة التفت الأباشـيري الغاضب إلى مليجي المتخشّـب أمام باب المحـل، كأنمـا انتبه إلى وجوده بغتـة. التقت عيناهمـا. دون مقدمات ابتسم الأباشيري وقال:

- أنا آسف.

رد مليجي مذعورًا:

- أنا مَن يتأسّف. هل قاطعتك؟

زادت ابتسـامة الأباشـيري، ولمح مليجي أنيابـه الطويلة تلتمع في شمس الظهيرة. قال الأباشيري:

- بـل أنـا مَن يعتـذر لأني لعنت دينـه ووصفته بابن دين البشـر، ثم التفتُّ لأجدك. لم أقصد الإهانة، الولد استفزني جدًّا، كنت سأقتله!

ببلاهة تساءل مليجي:

- استفزّك؟

وضع الرجل يده ذات المخالب على كتف مليجي بودٍّ وقال:

- لا تشغل بالك يا بشري.. ما اسمك؟

- مليجي الصغير. وأنت؟

رد الأباشيري:

- نُمَيْر آل ببر.

دعا نُمَيْر مليجي للدخول إلى المحل، التقط طفلًا عابرًا من أمام المحل وطلب منه أن يجلب عبوة مياه غازية من المطعم القريب، قال لضيفه:

- تفضّل بالجلوس.

شغَّل المروحة اليدوية لتُحرِّك الهواء الميّت، ثم جلس على مكتبه، وقدّم ابتسامة كبيرة لمليجي وهو يقول:

- قبل عشرين سنة قابلت بشريًّا أيضًا، كان يمضي شمالًا، كل البشر الذين قابلتهم في حياتي كانوا يمضون شمالًا، لا أعرف لماذا؟!

وصل الطفل ذو البشرة المرقّطة كالفهود، ناول المشروب لنُمَيْر ثم استأذن في الانصراف. سأله مليجي:

- ابنك؟

نفى نُمَيْر بابتسامة، وواصل حديثه:

- لماذا يمضي البشر شمالًا؟

شعر مليجي بشيءٍ من الألفة تجاه الأباشيري الأول الذي يقابله، وبعد تفكير سريع وجد أن «نُميْر» ليس سوى إنسان، يصبغ نفسه بألوان غريبة، ويرتدي باروكة كبيرة في لحيته، منقوشة بخطوط تشبه ألوان نقشة الببر أو النمر، كما يسمّيه الناس في البلاد البعيدة التي جاء منها مليجي الذي قال:

- البشر دومًا يمضون إلى جهات غير معلومة.. وعلى الأرجح يندمون!

بمخلبه فتح نُميْر غطاء زجاجة المشروب، ثم قدّمها لمليجي وقال:

- لماذا يفعل البشر أشياء يندمون عليها؟

لأسباب مبهمة، وجد مليجي في نفسه رغبة في أن يتفلسف، رشف جرعة وقال:

- هكذا طبيعتهم يا صاحبي، هكذا طبيعتهم وطبيعتي، أو هذا ما أظنّه، الاحتمالات وفيرة إحصائيًا، وانتظار المنطق من الإنسان مثل انتظار العسل من الحصان، وها أنا أمامك، بشري اعتاد أن يفعل ما يندم عليه، ويندم على ما يفعل.. وكلاهما واحد.

دون مقدّمات، خمش نُمير على زجاج مكتبه بمخلب طويل مُشهر من أحد أصابعه، أمعن مليجي النظر إلى المخلب. قال نُمير:

- سأتجاهل أنك شخص متحاذق، لكن لن أتجاهل أن فعلك لما تندم عليه لا يساوي أبدًا ندمك على ما تفعل، هما ليسا واحدًا، وإلا بهذا المنطق ستكون «أتبوّل ما أشربه» مساوية لـ«أشرب ما أتبوّله»، وشتّان بينهما يا بشري..

شعر مليجي بالإحراج من فصاحة الأباشيري، وشعر بالهزيمة أيضًا أمام المثال المُحكم الذي ضربه، وقرر أن يدفن خجله في عبوة المياه الغازية، كانت باردة، تكثّفت عليها من الخارج قطرات ماء. رفعها مليجي إلى فمه وتذوّق طعمها الشعيري الحامض، ضيّق عينيه وكرع جرعة كبيرة، ثم رفع الزجاجة عن فمه وتجشّأ. قال نُمير:

- قوّة على قلبك.

رد عليه مليجي بعد أن تجشّأ مرةً أخرى:

- شكرًا.. ما هذا المشروب؟

اتسعت ابتسامة نُمير ولمعت عيناه، وقال بعد سكوت:

- بول.

-2-

دعـا نُمير مليجي إلى بيته، وأسـال لعابه عندما حدثه عن وجبة كِبد الغـزلان التي تحضّرها شـقيقته ببراعة في كل أشـكالها: نيئة، وبالدم، ونصف مطهوّة، وحتى المشـوية والمطبوخـة. مليجي حاول أن يُلمّح لنميـر بأنـه لا يـأكل اللحم النيء، لكنـه في الوقت عينه كان يعد نفسـه بأول جرعة بروتين تدخل جسده منذ وصل إلى أرض اللابوريا، وهي الأولى إذا اسـتثنينا حسـاء أفعـى القهيقران، التي طهتها لـه زُمرّدة بنت صخر.

وهما يستعدان لمغادرة المكتب، سأل مليجي:

– لماذا كنت تشتم ذلك الصبي؟

قال نُمير:

– آه، ذلـك المسـكين الغبـي، كان يريد أن يتزوّج أختي، سـألته إن كان لديه عرين فنفى، سـألته إن كان يعمل فقال إنه صيّاد قنافذ وأرانب فـي رحـاب البادية، يبيع أشـواكها وفراءها، يأكل لحمهـا يومًا ويجوع

أيامًا، وعندما أخبرته أن ذلك غير كافٍ، بدأ المخنوث يكلّمني عن الحب.

تجرّأ مليجي وسأل:

- لكن ربما يحبها فعلًا.

بثقة رد نُمير:

- كل أباشير المدينة يحبّون سنّورية.. فهي الأجمل على الإطلاق، لا في العرين فقط، لكن في أباشيريا كلها. الحب سبب غير كافٍ لأزوّجها لصيّاد فقير.

تفاعل مليجي مع الأباشيري، وسأل مرة أخرى:

- وماذا تعمل أنت يا صاحبي؟

قال نُمير:

- أُدير مكتبًا لخدمات التطواف الداخلي والترفيه، أقوم بترتيب برامج متنوعة: رحلات المبيت في الغابة لأربع ليالٍ، سفاري لصيد وقنص الأرانب البرّية، مخيّمات كشّافة عند سفح جبل التخوم بالقرب من هنا، رحلات لطلبة المدارس لزيارة جنودنا المصابين في حرب الصحراء والجبل مع الحراصيد في الجبهات البعيدة، وكذلك زيارة متحف مقتنيات الشهداء. لديَّ شهادات معتمدة من ديوان التدريس، وديوان التطواف، وديوان قانون الغاب.

عـاودت مليجـي نزعتـه الأنثروبولوجيـة، أراد أن يفهـم التركيبـة الاجتماعية لأباشيريا، فسأل بمنتهى الحياد والتجرّد العلمي:

- أنت رجل ناجح في عملك، قل لي الحقيقة إذًا: هل ساهم كونك من آل ببر في هذا النجاح؟

بالكثير من الزهو والانتفاخ، قال نُمير:

- طبعًـا سـاهم. أنـا من آل ببـر. أسـياد مدينة العريـن، وهناك على أطراف المدينة، حيثُ الدّغل الغربي، وُلدت وكبرت على أن أهز ذيلي وأفخر بنسبي أمام الجميع، وأضع رأسي برأس آل ليثي، وآل فهد، وآل سباعي، وآل ابن آوى، وآل قَسْوَرة، وآل ضبع، وآل ديب، وآل ثُعيلب، وآل كلاب، وآل هُريْـرة، وآل قيّـوط، وأي آل أخـرى في الناحية كلها، بل في أباشيريا قاطبة.. أنا من آل ببر، ونحن إن قلنا «نحن» الكون يردد «نحن».. ولا يستطيع أحد أن يمسّني.. لأني نُمير آل ببر.

ثـم انتصب علـى مكتبه وقال بأداء مسـرحي، وهو يرفـع يده زهوًا ويقلّد الفرسان:

إذا غضب عليك الفتى نُميْــــر   حسبت الأبُشُر كلهم غضابـا
فغضّ الطرف إنك من ثعيلـب   فلا فهدًا بلغت ولا كلابــــا
ولو وزنت فِراء بني ثُعـــــــ..

تجمّـد نُمير فجأة في مكانه وقطع قصيدته، نظر إلى مدخل المحل، ونظر مليجي معه ليجد ضابطًا هائل الجثّة له لحية كلب قوقازي، ينظر إليه وابتسامة كبيرة تعتلي محيّاه. قال الضابط:

- أكمل يا نُميْر، أنت جعلتني أتأثّر!

ثـم بإشـارة، أصدر الأوامر لعسـاكره الذين زمجـروا وخنفروا، ثم هجموا وكبّلوا الأباشيري المنتصب كتمثال على المكتب.

-3-

فـي الطريـق إلى المخفر، طلـب نُميْر من مليجـي أن يُبلغ أخته بما حصل، وأن يخبرها بأن أمير آل هِزَبْر من الأسـرة السـلطانية الحاكمة، لفّق له تهمة تهرّب ضريبي، لأنهما كانا قد تشـاحنا كثيرًا بسـبب رفض نُميْر أن يزوج أخته سـنّورية للأمير. نُميْر أعطى عنوان البيت لمليجي، وطلب منه أن يعود معها سريعًا لينقذاه من ورطته.

أمـام البيـت الواقع في الدغـل الغربي، طرق مليجي الباب، سـمع وقـع خطـوات خفيفة تقترب، ثـم انفتح الباب ليجد نفسـه أمام أجمل مخلوقة رآها في حياته. كانت سـنّورية آل ببر تشـبه نَمِرة بيضاء نادرة. لها شعرٌ أسود ناعم قصير يضفي عليها صبغة من القوة، التي تصل إلى حد الشراسـة. كانت سـنّورية بحق، ترتدي ثيابًا تقليدية محتشـمة، إلا أن عينيها قالتا لمليجي إنه يجب ألا ينخدع فيها، وإنها أقوى بكثير من أخيها الأبله المتباهي، والذي افتضح أمر ادعائه الأهمية والحظوة بعد خمس دقائق فقط من لقائه بمليجي.

سنّورية فور أن سمعت الخبر، ضربت صدرها، وقالت:

- ويّيه يا نُميْر يا حبيبي!

ثم أرسلت أبناء الجيران ليستدعوا القانونغابي من مكتبه القريب من البيت، وذهبت تعدو معه إلى المخفر، بينما يحاول مليجي لاهثًا أن يلحق بهما.

في المخفر، لم تمتلك سنورية ما يكفي لدفع كفالة الإفراج عن نُميْر، وكانت تلك مشكلة تهدد بأن يقضي أخوها ليلته في القفص، إلا أن مليجي تدخّل، واستخرج من زوّادة زُمرّدة بنت صخر بعض أحجار العقيق الداكن والزبرجد الأخضر الزاهي، وكانت قد نصحته بمقايضتها مع الأباشير، فقايضها مع الأباشير، الذين ذُهلوا بالأحجار وألوانها الفاخرة والأصلية.

خرج نُمير من المخفر مطأطئ الرأس، مهزومًا، سحقه أمير آل هِزَبْر بضربة واحدة. التفت بانكسار إلى مليجي وهمس:

- شكرًا.

ثم عاد ليُحلق في الأرض. ردَّ مليجي:

- أنت أخي.

راحت سنّورية تحاول أن تخفّف عن أخيها المكسور، قالت إن القضية المرفوعة ضده بلا قيمة؛ لأن أوراق المحل ستثبت أنه يسدد ضرائبه، وطالبته بالنزول للعمل غدًا كالمعتاد دون أن يخشى شيئًا؛ لأن

القبيلة بكاملها ستكون في صفّه. ابتسم نُميْر وذكّرها بأن القبيلة كلها ليست سوى سبعة أفراد، وسط ملايين الأباشير. ضحكت سنّورية، وضحك مليجي، فضحك نُميْر..

بعد أن وصلوا إلى البيت، أصرّت سنّورية أن تطهو لمليجي كبِد الغزال، وسألته بخجل عن المعايير البشرية لطبخ هذه الأكلة. أما نُمير فأقسم بالأسد الكبير، أن مليجي ضيفه طالما أقام في أباشيريا، وأن موقفه الشهم دَين في عنقه حتى يوم التسديد.

شعور غريب انتاب مليجي، وهو جالس في الصالة مع صاحبه في انتظار وجبة كبد الغزال، لوهلة ذكّره نُمير بصديقه علي علي، فكلاهما يتمتع بالنوع نفسه من الولاء الغبي. دمعت عيناه عندما تذكّر رفيق الشطر الأكبر من حياته، ينبوع البانجو، كما كان يطلق عليه في الأيام الخوالي.

لاحظ نُمير الدمعة في عيني مليجي، ناوله مفرشًا ليمسح دموعه وتركه وحيدًا حتى يهدأ، غاب لدقائق ثم عاد محملًا بالأطباق التي جهّزتها سنّورية، رصّها على السُّفرة، دعا مليجي للأكل، ونادى على أخته، وبعد ثوانٍ كان ثلاثتهم على الغداء.

كانت سنّورية سعيدة بسلامة أخيها، وسعيدة بصديقه الشهم الذي أنقذهما بأحجاره الكريمة؛ لذلك لم تكف عن الحديث طوال وجودهما على السفرة، فحكت لمليجي كيف جاء الأباشير القدامى

إلى أباشيريا منذ قديم الأزل، وتناسلوا مع السباع والأسود والكلاب والقطط الكبيرة والصغيرة؛ إذ إن الأباشير هم ثاني أقدم أهل أرض اللابوريا بعد شعب يأجوج ومأجوج، حكت له أيضًا عن التمييز الطبقي، الذي يعيشونه منذ قديم الأزل، بالتفوّق الدائم والأبدي لآل هِزبر من الأباشير الأسُود، رغم مزاحمات متباعدة وخجولة من آل قسورة وآل ديب، إلا أنه لا أحد سوى آل هِزَبْر يستقر في القصر السلطاني في العاصمة البراري.

بينما كان نُمير يأكل في صمت، واصلت سنّورية ثرثرتها التي أعطت مليجي فكرة عن الأباشير مغايرة لتلك التي رسمها له غندور ابن هنكال. تطرّقت سنّورية إلى الأديان والعقيدة الأباشيرية، فالأسد هو سبع الله المختار، لكن الذئب الأبيض تمرّد عليه وواجهه. ورغم أن الذئب الأبيض هُزِم وسُحل ومُزّق بشكل دموي ونهشته الأنياب، إلا أن سيرته ونهايته البطولية الحزينة أكسبته أشياعًا كثيرين، يؤمنون بالذئبية، ويعيشون في واحات الشمال ناحية الحدود المشتركة بين سلطنة أباشيريا واتحاديّة عماليقستان الفيدرالية.

الثروة الطائلة من الفحم المتوافرة في أباشيريا جعلت منها دولة مكتفية ذاتيًا، والسلطان عبّاس آل هِزَبر آمن مثل أسلافه بأن ملء بطون هؤلاء كفيل بإسكاتهم وترسيخ الاستقرار في السلطنة. تُصدّر أباشيريا الفحم إلى ثلاث دول من السبع المكونين لأرض اللابوريا،

وتوافر عوائده، إلى جانب ثروة حيوانية هائلة، مصادر الدخل الرئيسية للأباشير.

لم يكن حرص السلطان عبّاس آل هِزَبْر على ملء كروش الشماليين سببًا وحيدًا لسكوتهم، لكن، بالمثل، منح قبائلهم الكبرى حظوة ومناصب، وصاهرهم جميعًا دون يأس أو كلل، عشّر بنات القبائل وضمن ستين خليفة محتملًا على أقل تقدير. آل ديب نالوا مناصب رفيعة، وآل كلب وآل ثعيلب وابن آوى وآل القيوط وكل أبناء الكلاب القديمة تشاركوا فيما يشبه الحكم الذاتي، تحت جناح السلطان ورضاه. بالمجمل، كان عصر عبّاس آل هِزَبْر جيّدًا مقارنة بسلفه السلطان جزّار آل هِزَبْر الذي حكم لقرن كامل، ضاقت فيه الأحوال، وجفّت أشجار الأحراش، أقفرت الشوارع، وانتشر الظلم وأحكام الإعدام، وسوّس الفساد نفوس الأباشير.

سنّورية أكّدت لمليجي أن السلطان عبّاس رجلٌ عادل، وأنه لا تمييز يحدث في البلاد إلا التمييز الوحيد المعروف بين أصحاب المهابة السلطانية من آل هِزَبْر، وأبناء بقية القبائل، وهو - وفقًا لرأيها- عيبٌ من ضمن عيبين ورثهما السلطان من أسلافه سلاطين أباشيريا، والعيب الثاني هو سعيه الدائم لتصدير العقيدة الأباشيرية وكتابها المقدس «قانون الغاب» إلى الدول المجاورة، وتتعجب سنّورية من ذلك:

– وما علاقة أهل عماليقستان الشماليين بالأسد الكبير؟ وكيف يؤمن الحراصيد بدين قوم يأكلونهم وكل أبناء عمومتهم من أرانب وسناجب وقنافذ وجرذان، والأدهى أنهم يخوضون ضدهم حربًا لفرض السيادة على صحراء القِفر وجبل التخوم؟

وأخيرًا، حكت سنّورية لمليجي حكاية الأمير الشاب من آل هِزَبْر الذي هام بها حبًّا، وصار يطاردها في كل نواحي المدينة، يرسل لها الهدايا مع مساعديه، ويعترض طريقها بين الحين والآخر. سنّورية أكّدت أيضًا أنها كانت تصدّه في كل مرة، وأن وقاحته جعلته يتجاهل صدودها الدائم، ويستمر في محاولاته لاستمالتها. وهنا استفسر مليجي عن سبب رفضهم للعريس السلطاني الثري، كما رفضوا العريس الثعلبي الفقير. فحكى نُمير أصل الحكاية، وسرد القصة القديمة، عندما قام آل هِزبْر بقتل الكثيرين من عشيرة آل ببر الكبيرة، وساقوا الكثيرين منهم إلى الحرب المشتعلة على جبهة الحراصيد، ومَن بقي منهم في المدينة، قاموا بتهجيره ناحية أرض الجسّاسة، حتى فنيت العشيرة عن بكرة أبيها، ولم يبقَ منها سوى سبعة أفراد منهم سنّورية ونُمير.

-4-

ثلاثة أشـهر قضاهـا مليجي في بيت آل ببر، يخـرج بالنهار مع نُمير إلى مكتبه، ويتسـامر مسـاءً مع سـنّورية الجميلة، والتـي اتضح بمرور الوقـت، أنها تُكن مشـاعر خاصة ناحية الضيف البشـري. ففي إحدى سهراتهما الممتدة حتى الفجر، وكان نُمير قد نام، قالت سنورية:

- حكـى لـي نُمير عن بكائـك لأنك تذكرت صاحبـك علي علي. أنت شهم يا مليجي، شهم ووفي ونبيل، الرجال مثلك نادرون في هذا الزمان.

شـعر مليجـي بالإطـراء، واحمـرّ وجهـه؛ إذ كانت تلـك المغازلة الأولى التي يتلقّاها من حيوانة. في أعماق قلبه سرت خلجة، وفكّر في الجمال الذي تخفيه الأباشـيرية الحسناء تحت ثيابها المحتشمة. لكن حقيقة وجود ذنَب يسـتره الأباشـير بثيابهم أقلقته، إلا أنه عاد وشـجّع نفسه، بعد أن مدّت سنّورية كفّها وتحسست ظاهر يده. قالت:

- أنـت تعجبنـي يـا مليجـي، أنـت مختلـف، لديك هـذه الكرش الجميلة وتلك الترهلات الطريّة، عكس رجال الأباشـير المشـدودين

المنحوتين، كما أنك رقيق ولديك قلب مرهف وحساس، أنت رجل نموذجي.

ذاب مليجي من الخجل، بقي مطرقًا في الأرض ولا يعرف كيف يرد، أربكته سنّورية بكلامها المعسول وغزلها الصريح. بعد صمتٍ همس مليجي بصوت متحشرج:

– وأنتِ أجمل أنثى في كل الخلق، قلت لنفسي ذلك، عندما رأيتك أوّل مرة.

ومن بعد هذا الاعتراف، التصقت سنّورية بمليجي، ولم يفترقا أبدًا، حتى النهاية.

-5-

قـرب بئـر مدينة العريـن، أقيم زفـاف مليجي على سـنّورية، وكان سـبب تفرّد تلك الليلة وكثرة الحضور فيها، أنهـا تُقام احتفالًا بالزيجة الأولى منذ آلاف السـنين التي تجمع أباشـيرية ببشري، هذا فضلًا عن حضور الكثيرين من أصدقاء نُميْر، كما كان للسمعة الكبيرة التي تتمتع بها سنّورية بوصفها أجمل أباشيرية في البلاد دور في أن يكون العرس حشدًا شعبيًّا هائلًا، حضره الكثير من الأباشير، وجاء بعضهم من مدن بعيدة كالبراري العاصمة، وبيت سـبع، والوجـار، وأبو عرتوق. يومها رقص معهم مليجي رقصة «العض»، كان يبدو كالأحمق، وهو يحاول التقافـز بخفّة مثلهم، والزئير في الوقفات. كانوا يزأرون، وكان مليجي يجعّر ليجاريهم.

صـار بيت نُميْر آل ببر هو بيت مليجي الصغير، وأصبح من العادي أن يخرج نُمير إلى مكتبه، ويترك مليجي وسنّورية بمفردهما، هل هناك شيء عادي أكثر من أن يتواجد الرجل وزوجته في منزل واحد؟ هكذا مضـت الأيام، نهـارات مفعمة بالحب والقلوب الطائرة والفراشـات،

وأمسيات يقضيها مع نسيبه، يتناقشان في حال البلاد، أو يتجادلان في السفسطة واللغويات، أو يحلان الكلمات المتقاطعة.. بالنسبة لمليجي، كانت تلك أيام الحب في أباشيريا.

-6-

في أحد المساءات، تناهت ضجة وأصوات عويل وعواء، قادمة من الفناء أمام البيت، اندهش مليجي، وقام ليعاين الأمر وتبعته سنّورية، شقّا الزحام ليصلا إلى مركز التجمهر، صرخت سنّورية بعد أن رأت أخاها على الأرض مضرجًا في دمه:

– ويّييه يا نُمير يا حبيبي!

بدأت تبكي وتموء بحزن. وحاول مليجي ابتلاع دهشته، وحمل صاحبه على كتفه ودخل إلى البيت، تاركًا الحشد وراءه يصدر أصواتًا مختلطة، تحمل علامات استفهام كبيرة.

قال نُميْر إن رجال الأمير تصيّدوه في الأحراش، وانهالوا عليه ركلًا ولكمًا وعضًّا ونهشًا، وأنهم توعّدوه بالمزيد وأكدوا أن هذا مصير كل مَن يحول بين الأمير وما يريده. اضطر مليجي يومها لاستدعاء طبيب الدغل لجبر كسور نُميْر وشروخه.

منذ ذلك اليوم تواصلت تحرّشات أمير آل هِزَبْر بنُمَيْر آل ببر، لم يترك سبيلًا لأذيته دون أن يخوضه، حتى إنه فكّر في أن يرسل ليحضر بعض

السحرة من إمارة الكرنتينا، التي يسكنها المشوّهون والمجذومون والعميان، ليزرع طريق نُمير بالأذى والشر. وحتى مليجي وصلته تهديدات مخيفة تتضمّن النحر والسلخ وتمزيق الأوصال.

فاض الكيل بنُمير ومليجي بسبب ظلم الأمير الشاب الطائش وتحرّشاته المتواصلة، وعقدا جلسة تباحثا فيها الأزمة، وانتهيا إلى قرار بأن يشتكيا الأمير إلى السلطان.. كانت خطتهما تقضي بأن يتحمّل نُمير ما يصدر عن الأمير أمير آل هِزَبْر، وأن يشكّل درعًا لمليجي، ريثما يستطيع أحد معارف نُمير تدبّر موعد في القصر السلطاني، وهكذا مضت أيام مريرة على نُمير ومليجي وسنّورية، شهر كامل، وقبل موعدهم في القصر بيومٍ واحد، مات السلطان.

-7-

مثلما أيقن مليجي أن الوصف غير الصحيح، الذي أخذه من غندور بن هنكال عن الأباشيريين سببه الحرب المشتعلة على الصحراء المتنازع عليها، أدرك أيضًا أن الشائعات التي بدأت تنتشر في المدينة ضده سببها رجال الأمير، الذين يروّجون حديثًا مفاده أن مليجي عميل للحراصيد، وأنه جاء لتوّه من هناك، وأنه أرشد القوات الحرصودية إلى مواقع حصينة في الصحراء والجبل. انتشرت الشائعات بسرعة الصرخة، وسرعان ما رمت بظلالها على مكتب نُمير للتطواف والترفيه. كما كفّت نساء الناحية عن أن يقصدن سنّورية في بعض طلبيات الطبخ الذي تتقنه، بعد أن كانت مطلبًا جماهيريًّا حتى فكّرت آنذاك أن تفتح مطعمًا.

لم تكن أحوالهم هم الثلاثة فقط التي تعاني الاضطراب؛ لأن السلطان الجديد أيضًا، واسمه ملك آل هِزبْر يتحسس خطواته أيضًا، ويتفحّص ردود أفعال المؤثرين من العائلة الحاكمة، وبالمثل يرصد انطباعات رجل الشارع. كذلك كان ملف الذئبيين في الشمال مفتوحًا

على مكتبه، هل سيواصل مهادنتهم، أم يقلّب لهم ظهور المجن؟ لذلك عقد اجتماعات متعاقبة مع مجلس الحكماء، وناقشهم في كل الملفات المفتوحة، وبعد أيّام من المشاورات، شكّل وزارته، وكانت مفاجأة نُميْر ومليجي وسنّورية كبيرةً جدًّا جدًّا، عندما وجدوا غريمهم أمير آل هِزبْر، وقد تولّى مسئولية ديوان داخل الغاب.

أيقن الثلاثة أن موعدهم قد حان، وأن الوزير الجديد لم يعد في حاجة لتدبير الكمائن كالمراهقين، واللجوء لحرب الشوارع، إذ صار يتحكّم في قرابة المليون عسكري، عدا عن صلاته بمسئول ديوان الحرب، لقد تغوّل أمير آل هِزبْر وتحوّل إلى مارد، ولا شك في أنه سيستغل موقعه الجديد ليظفر بسنّورية، وفي سبيل ذلك سيفعل أي شيء، وأول ما سيفعله أن يهرس نُمير ومليجي.

قرر الثلاثة الهرب إلى مملكة الجسّاسة في الشرق؛ تفاديًا لمصير أسود جرّبه أسلاف آل ببر من قبل. وهذا ما دفع نُمير كي يبيع محله في وقت قياسي، وباع كل محتويات بيته. جهز الجميع زوّاداتهم وعدّة السفر. مليجي عاد ليفتح زوّادة زُمرّدة بنت صخر، وتفحّص الأحجار المتوافرة لديه: زبرجدتان وياقوتة وألماسة ومجموعة من العقيق، وضع كل ذلك في زوّادته الجديدة. وعندما تلقّى الإشارة من نُمير، أخذ سنّورية ولحقا به إلى الدّغل الشرقي، عازمين على أن يتسللوا منه حتى سهل المحميّة، ومنه إلى أقرب نقطة حدودية من مملكة الجسّاسة.

مـا إن خرج الثلاثة من الدغل الشـرقي، إلا وسـمعوا أصوات نباح رجـال وزير داخـل الغاب أمير آل هِزبْر في أعقابهـم، فبدأوا في العدو بسـرعاتهم القصـوى، حتى إن سـنّورية قررت أن تحمـل مليجي على ظهرها، بسـبب بطئه البشـري، وأسـلمت سـاقيها للريح، يلحقها نُميْر الأبطأ منها.

نظروا خلفهم فوجدوا كتيبة كبيرة، لا تقل عن مائة جندي، يجرون خلفهـم مصدرين أصوات نباح وعواء وزئيـر وزمجرة أثارت هلعهم؛ خاصـة وأنها كانـت تقترب منهم بشـدة، حاولوا المنـاورة، فكّروا في الاختباء في شـقوق الصخور وجحور الضباب، أنهكهم العطش وهم يركضون، سنّورية في المقدمة وعلى كتفيها مليجي، ويتبعهم نُمير وقد بدأت قواه تخور.

دعا نُميْر الأسـد الأكبر أن يرحمه من الأسـد الأصغر، الذي أرسل كلابـه وراءه، بينما راح مليجي يحثه على الركض ويشـجعه ويؤكّد له أنـه بالقطع يقدر على المواصلة، فسـاعتان من الركـض فقط تفصلهم جميعًا عن أقرب نقطة حدودية لأرض الجسّاسة.

تحامـل نُميْر على نفسـه، واصل الجـري بأنفـاسٍ متقطّعة، غامت رؤيتـه قليلًا وبدأ يشـعر بهبوط حـاد، إلا أن صرخة مـن مليجي كانت تفيقـه بين الفينة والأخرى، وحتـى عندما غابت كتيبة رجال الأمير عن أنظارهم، واصلوا الركض دون توقّف.

بدأ السياج الحديدي الذي يفصل أباشيريا عن أرض الجسّاسة يتراءى من بعيد لمليجي وسنّورية، فزادت من سرعتها؛ لتضمن النجاة من الخطر الذي يحدق بها وبأسرتها، ونظرت وراءها لتطمئن على أن «نُميْر» يلحقها، إلا أنها وجدته واقعًا على الأرض. توقفت عن الجري فورًا، حتى إن مليجي طار عن ظهرها إلى الأمام وسقط متدحرجًا. عادت سنّورية جريًا إلى أخيها، فوجدته في حالة بائسة، ووجهه ممتقع وغارق في العرق، وعيناه تغرقهما الدموع. ارتعشت شفتاه كأنما يريد أن يقول شيئًا لكنه لم يقله، ومن جانبه سال خيط من الدم.

صرخ مليجي الذي لحق بزوجته، وهو يشير إلى الأرض:

- دم يا سنّورية.. إنه ينزف.

قلبته سنّورية على ظهره، بينما كان يصدر حشرجات مؤلمة، وجدت ثقبًا بحجم رصاصة يتوسّط ظهره، قال مليجي:

- أصابوه بعيار ناري، لا أعرف إن كان يركض وهو مصاب، أم أنهم أصابوه حالًا؟

زفر نُميْر زفرة ثم أسلم الروح، وهو بين يدي أخته وزوجها، فصرخت سنّورية:

- ويّييه يا نُمير يا حبيب أختك..

أشـار مليجي ناحية الغـرب حيث ارتفع غبار كتائـب رجال الأمير وهـم يقتربـون، وقرر أن يتصرّف حالًا. مد يده وأغلـق جفني نُميْر، ثم حمل حبيبته على ظهره، وكانت لم تتوقّف عن النواح، وركض مجتازًا السياج الحدودي لأرض الجسّاسة، قبل أن تصل قوات الأمير.

الجسّاسَة.. والدلاهبة الثلاثة

-1-

عبْـر فجوة في السـياج، تجاوز مليجي وسـنوّرية الحدود، ثم وقفا ينظـران إلى الجهة الأخرى حيث احتشـد عسـاكر أميـر آل هِزبْر، دون أن يحاولـوا تخطّـي السـياج، بل وحتـى دون أن يجـرؤوا على إطلاق رصاصـة واحـدة، لأنهـم يدركون جيّدًا بسـالة وصرامـة رجال حرس الحدود الجساسي المعروفين بالدّلهاب.

كانت سنّورية لا تزال تبكي أخاها الملقاة جثته على الجانب الآخر مـن الحدود، حاول مليجي تهدئتها، وهو يسـحبها بعيدًا عن الشـريط الحـدودي مع أباشـيريا، غيـر أن بكاءها المرير دفعه هـو أيضًا للبكاء، جثيـا علـى ركبهما وتعانقا، شـد كل منهما حضنه علـى الآخر، وراحا ينهنهان ويتشحتفان بالبكاء والمواء.

قال مليجي:

- صرنا يتيمين من بعدك يا نُميْر..

ردّت سنورية وهي تنوح:

- وتِيبيه عليك يا عمري يا نُمير..

وعلى هذا الوضع، ظلا طوال الليل متعانقين ونائمين على الرمال الساحلية البيضاء، التي تميّز أرض الجسّاسة. وبعد أن ناما، حلما بحلم مشترك، ورأيا الأسد الأكبر وهو يتوّج نُميْر بإكليل الفرائس، فكرّمه وقرّبه وأدخله إلى حدائق الليوث. هذا لأن نميرًا كان أباشيريًّا طيبًا يحب الجميع، ويعمل وفق كتاب قانون الغاب في كل كبيرة وصغيرة، كان يضج بالحياة والحب. هذا ما قاله مليجي لسنّورية صبيحة اليوم التالي، بعد أن استيقظا، وحلّا عناقهما الليلي الطويل، الذي سيتحول إلى طريقتهما المفضّلة والدائمة لجلب النعاس والخلود إلى النوم.

بحزن وخشوع، تذاكرا مآثر نُميْر ومناقبه، وأقر مليجي وهو يتمشّى مع سنّورية شرقًا ناحية البحر، بأنه يدين بكل شيء لذلك الأباشيري الشهم، لأنه احتضنه وآواه عندما كان جائعًا طريدًا.

في سياقات مشابهة، أضاعا عدّة ساعات، مشيا فيها كثيرًا، إلى أن وجدا كوخًا صغيرًا ينتصب وسط الرمال البيضاء.

وقفا على مسافة آمنة، وبعد التشاور طلبت سنّورية من مليجي أن يبقى بعيدًا، وقررت أن تذهب لتستطلع الأمر، فإن كان هناك خطر ما، تستغل سرعتها في العدو وتهرب، وسيكون هروبها إشارة له ليهرب هو أيضًا. استحسن مليجي الخطة، وذهبت سنّورية لتتفقّد الكوخ، وعادت بعد ذلك لتشير له بأنه آمن.

دخلا إلى الكوخ، ووجداه مكانًا جيّدًا ليقضيا يومهما فيه، على أن يغادراه في اليوم التالي. لكن، وقبل حتى أن يخلعا زوّادتيهما، طرقت أسماعهما أصوات تشبه النفخ في الأبواق. خرجا ليستطلعا الأمر، لم يجدا شيئًا، دارا حول الكوخ، أيضًا لم يكن هناك أي شيء، وعندما رجعا إلى باب الكوخ، فجأة، وجدا نفسيهما محاصرين بأعداد غفيرة من الدّلهاب، لا يعرفان متى وكيف ظهروا. فرسان عجيبون يركبون النعام، ولهم في أعناقهم ما يشبه الخياشيم.

-2-

نُعمان، وشـعلان، وسمعان، هم فرسان النعام الثلاثة الذين تقدّموا ناحيتهما، وقالوا في نفس واحد:

– واحـد مـن بنـي آدم وواحـدة من الأباشـير في بلاد الجسّاسـة.. إممم.

ارتبـك مليجـي ولـم يعرف بمـاذا عليه أن يرد، بينما كانت سـنّورية تتأمـل العـدد الهائل من النعـام الممتد من أمام الكوخ حتى السـاحل، ولا تتوقّف عن الزمار. قال فارس النعامة اليمنى:

– أنا نُعمان الدلهابي..

وقال فارس النعامة الوسطى:

– أنا شعلان الدلهابي..

واختتم فارس النعامة اليسرى:

– وأنا سمعان الدلهابي.

وسـيذكر مليجي أن الكلمات السـابقة كانت الوحيـدة التي يقولها الدلاهبة بشكل متفرّق؛ إذ سيواصلون بعدها ثلاثتهم النطق بالكلمات ذاتها في الوقت ذاته.

قال مليجي:

- وأنا مليجي، وهذه زوجتي سـنّورية، جئنا إلى هنا هربًا من بطش أمراء آل هِزَبْر في أباشيريا.

بنفس واحد، رد الفرسان الثلاثة:

- لاجئان جديدان.. إممم.

احتـار مليجي فـي اختيار واحد فقـط من الثلاثة ليوجّـه له حديثه، ولأن الرجل في الوسط كان الأقرب له، خاطبه مليجي:

- سـيدي، لقد قتلوا شـقيق زوجتي، وأحرقوا ممتلكاته، وطاردونا عبر البلاد. وأنا أمتلك هذه الأحجار الكريمة، التي سأقدمها لسيادتكم بكل حب وامتنان لكرمكم البالغ؛ إذ ستسـمحون لي ولزوجتي، على الأقـل، أن نمر عبـر بلدكم العظيم، شـمالًا، إلى عماليقسـتان، هذا إن لم تشملونا بعطفكم السامي، وتقبلوا باستضافتي أنا وزوجتي، ومنحنا وثائق الإقامة الدائمة، دام كرمكم..

كانت النعامات بدأت في إصدار زمارها المخيف كالأبواق بسبب الطريقة المملة التي تكلم بها مليجي، وكانت تتغامز وتتلامز فيما بينها

دون أن تنطق، خشية أن يسمعها الفارس الدلهاب فيهوي بكفه الغليظة علـى قفاهـا، ليعيدهـا إلى احتـرام قواعـد الجُنديّة الدلهابيـة.. واصل مليجي:

- وأنا حيث أتقدم لمعاليكم بطلبي هذا، فإنني يغمرني الأمل في أن سموكم ستنعمون على أسرتي بعطفكم الكريم وتسمحون لنا بذلك.

ثم إن مليجي جثا على ركبتيه وضم كفّيه، كما لو أنه يصلي، فقلّدته ستّورية دون تفكير.

أطلـق نعمان وشـعلان وسـمعان ضحكـة ثلاثية متناغمـة، كما لو كانـوا أقاموا عليها عديـدًا من البروفات، وأنهوها فـي الوقت عينه، ثم قالوا بنفسٍ واحدٍ وثلاثة أصوات:

- إنسان متحاذق وغبي!

حتى النعامات سُمِح لها بأن تضحك بصوتٍ خافتٍ على الخطاب السـاذج، الـذي قاله مليجي اسـتعطافًا للدلاهبة. تقـدم نعمان ثم قال، وقال الآخران معه:

- يبدو أنك لا تعرف شـيئًا عن حـرس الدلهاب.. رغم أنك تعيش فـي أباشـيريا المجاورة، لكن لم تسـمع عـن المثل الـذي تقوله قبائل الأباشـير التي تعيش قرب حدودنا: لا تلعب مع الدلهاب.. سيسـيمك سوء العذاب. مجرد جاهل متفاصح، تظن أن ديباجة مدرسية مثل التي قلتها ستعفيك من تطبيق قوانيننا عليك.

رد مليجي المذعور:

- وماذا يقول القانون في حالتي؟

لم يرد الدلهاب على سؤال مليجي، ومد الثلاثة أيديهم في الوقت نفسه، وقالوا بنفسٍ واحد:

- هات الأحجار الكريمة.

لم يتردد مليجي وأعطاهم إياها فورًا، جمعوها في يد نعمان، الذي أشار إلى بعض جنوده فترجّلوا عن نعاماتهم، ثم نثر نعمان الأحجار على الرمل، وأومأ للنعامات التي هجمت على الفصوص الملوّنة المنثورة تأكلها بنهم.

نظر ثلاثتهم إلى مليجي، وقالوا مع بعضهم البعض:

- لا تحاول أن تقدم رشوة للدلهاب مرة أخرى.

ثم قال سمعان، بالأصالة عن نفسه، وبالأصالة أيضًا عن الآخرين:

- القانون يقول إنك ستذهب إلى مخيّمات الساحل مع بقية اللاجئين، وستعرضون جميعكم على مولاتي الجسّاسة وهي تقرر مصائركم، وتخبركم بما سيكون.

ثم أشار للفارسين الآخرين، فسحب شعلان مليجي على نعامته، وسحب نعمان سنّورية، ثم شدّوا ألجمتهم، فانطلقت الطيور الكبيرة تعدو، وتبعهم بقية فرسان النعام.

-3-

كان المخيّم مكانًا بائسًا يعج بالمخلوقات: حراصيد وأباشير وشق وجباليين، وحتى بشر، حيث رأى مليجي إنسانًا ضمن اللاجئين، ورأى أيضًا لاجئين من أجناس أخرى لم يعرفها، ولم يميز منها سوى العماليق، إذ كان هناك رجلان يناهز الواحد منهما طول مدخنة. الأصوات مختلطة وصاخبة واللهجات متباينة، بعضها مفهوم وبعضها غير مفهوم، وكان مليجي وسنّورية يلتقطان شذرات من جُمل مبتورة، وهما في طريقهما إلى الخيمة التي خُصّصت لهما.

فكّر مليجي في الإنسان الذي رآه في إحدى الخيام القريبة، وقرر أن يزوره بعد أن يستريح قليلًا من وعثاء الطريق. تعانق مع سنّورية كما فعلا قرب السياج الحدودي، وغفيا قليلًا، فحلما حلمًا مشتركًا مرة أخرى، إذ رأيا نُميرًا يبشرهما بأنهما سينجبان طفلًا ذكرًا عما قريب، وأن اسمه سيكون نُمير الصغير، منتسبًا بالاسم الأول إلى خاله، وبالثاني إلى أبيه.

عندما استيقظا كانا في مزاج جيد، وكانت بشارة نُمير تمنحهما الطاقة للكفاح والصمود والتصدي لكل الصعاب التي يواجهانها، في سبيل غدٍ يعدهم بحياة أفضل.

جهّزت سنّورية كوبين من الأعشاب التي كانت في زوّادتها، شرباها، وبعدها، استأذنها مليجي لأن الفضول كان يقتله، وذهب ليقابل الإنسان الآخر.

-4-

وجد مليجي الإنسان الآخر ينتظره أمام مدخل خيمته، ما إن رآه حتى اتسعت ابتسامته، اقتربا من بعضهما وتعانقا. قال الإنسان ببشاشة:

- أنت أول إنسان أقابله في أرض اللابوريا قاطبة. تشرّفت بك. أنا أباظة من الأرض.

لم يحتج مليجي لأكثر من كلمة واحدة؛ حتى يدرك أن أباظة من بلد جارة وشقيقة لبلاده، وكان ذلك سببًا كافيًا ليجعله سعيدًا:

- وأنا مليجي يا ابن عمي، ما أحلى هذه الصدفة!

وافقه أباظة:

- أي والله، أنا سعيد جدًّا لأني التقيت بك. لكن ما الذي تفعله هنا وكيف جئت إلى أرض اللابوريا؟

تنهّد مليجي:

- يااااه، إنها قصة طويلة وعجيبة جدًّا!

وشرع يحكي قصته، منذ أيام القحط المزاجي في بلاده، ثم تجاربه المعملية، والشجرة العجيبة، ومن بعدها وصوله إلى بلاد الحراصيد، وعبوره من صحراء القفْر وجبل التخوم، حتى وصوله إلى أباشيريا وزواجه من سنّورية؛ مختتمًا الأحداث بفراره من هناك بسبب آل هِزَبْر الطغاة.

قال أباظة:

- هذه بالفعل حكاية عجيبة، لكن العجيب فيها هي كيفية الوصول إلى هنا؛ لأن هذه المخلوقات حولنا ليست عجيبة، الحقيقة أنهم واقع يحيط بنا، العجيب فعلًا هو الماضي الذي تركناه هناك، منذ وُلِدنا وحتى وجدنا أنفسنا هنا، لأنه أصبح غيبًا!

قدّم أباظة سيجارة لمليجي ثم واصل:

- أنا نفسي لا أكاد أذكر من تلك الأيام سوى أنني كنت في المستشفى أخضع لجراحة خطيرة، وفجأة وجدت نفسي هنا، حتى إنني لا أعرف هل أنا ميت هناك وحي هنا أم العكس؟

رد مليجي:

- كلاهما واحد.

نفث أباظة دخان السيجارة، وقال:

- مستحيل.

لاح طيف نُمير يقف مبتسمًا، وهو يتابع الجدال اللغوي، قال مليجي:

- في الحالتين أنت الآن في مملكة الجسّاسة من أرض اللابوريا.

رد أباظة، وهو يشير بتباهٍ إلى رأسه:

- المحور في هذه المسألة ليس مرتبطًا بالمكان يا ذكي. إنما بحالتي من ميت إلى حي.

قال مليجي:

- في النهاية نحن بائسان.. دون أسباب واضحة وجدنا أنفسنا في خضم حياة لا ننتمي إليها.

ابتسم أباظة:

- ربما. لكن عن نفسي، لم تكن حياتي في الواقع القديم رائعة، كنت مريضًا جدًّا، وأجريت سبع جراحات لكي أبقى حيًّا، أما هنا فكما ترى، لست بذلك السوء، ويمكنني أن أبدأ من جديد، أفكّر كثيرًا في البقاء هنا.

تنبّه مليجي للرقم سبعة الذي أشار له أباظة، وربطه فورًا بوجودهما في أرض اللابوريا، قال لصاحبه:

- وردة الشجرة العجيبة التي دخّنتها قبل أن أصل إلى هنا كانت تضم سبع ورقات أيضًا.

قال أباظة:

- وأرض اللابوريا عبارة عن سبعة بلاد.

رد مليجي:

- حتى الوصفة التي استخدمتها لحقن بذرة الشجرة العجيبة. كانت رقم سبعة!

أجاب أباظة:

- هل يعني ذلك أي شيء؟

نفخ مليجي دخان سيجارته:

- لا أعرف يا صاحبي. حقًّا لا أعرف. لكن يجدر بنا أن ننبش في هذا الاتجاه.

سحب نفسًا آخر من سيجارته، ثم واصل:

- طيّب يا صاحبي بما أنك قديم في هذا المخيم، قل لي، مَن هم الدلـ..

سد أباظه فم مليجي بكفه ومنعه من الإكمال، راح يتلفت يمينًا ويسارًا ليتأكّد أنه لا يوجد دلهابي بالقرب منهما، وعندما هدأ قليلًا أفلت فم مليجي، ونهض طالبًا منه أن يلحقه إلى خيمته، ليتمكّنا من التحدث بحرية وأمان. وهناك في الخيمة، حكى أباظة لمليجي عن حرس الدلهاب.

الدلاهبة جن بحرية مُتشيْطنة، يعيشون منذ قديم الأزل على السواحل، يركبون النعام ويجوبون الشواطئ والمناطق الواقعة بالقرب منها، يرقبون القادمين من البحر إلى البر، والقادمين من البر إلى البحر، ويفرضون السيطرة كاملة على الشريط الساحلي. فيلقون القبض على مَن يشاؤون، ومَن لا يعجبهم يتسلون بتمزيقه ببطءٍ، ثم يطهونه في قِدْر ويأكلونه. وقيل إن لهم صرخة مخيفة مدوية، تصم الآذان وتكفي الناس على وجوههم. أما نعاماتهم فهي رحائلهم، لا يوجد دلهابي بلا نعامة، تعيش معهم في البيت نفسه، وتنام مع الواحد منهم وزوجته على السرير نفسه.

بعد آلاف السنين من استقرارهم على الساحل، تمرّد بعض مغامري الدّلاهبة على الحياة النمطية العسكرية، منهم مَن باع نعامته، ومنهم مَن أكلها، ثم ركبوا السُّفن وأبحروا شرقًا، وأرفأوا إلى أرخبيل جزائر اليم، وهناك قابلوا الجسّاسة وآمنوا بها وصدّقوها بل وخافوا منها، وليتّقوا

شرها، بايعوها، ودانوا لها بالولاء المُطلق، وبدلًا من أن تحكم دولتُهم الساحلية الجزرَ الجديدة، حدث العكس، وحكمت الجزرُ الساحل.

حفظ مليجي كل كلمة قالها أباظة عن الدلاهبة، منتويًا إضافتها إلى ثَبْته العلمي.. خرجا بعد ذلك من الخيمة، تقاسما آخر سيجارة في حوزة أباظة، ومرت ثوانٍ من الصمت، قبل أن يقطعها مليجي قائلًا:

- وإلى أين كنت ذاهبًا يا أباظة، قبل أن يقبض عليك الدّلهاب؟

- شمالًا، إلى جزيرة كابوريا.

للمرة الثانية في حوارهما يشعر مليجي بأنه بدأ يضع يده على بعض أسرار هذه الرحلة. قال:

- الجزيرة اسمها كابوريا!! أين تقع؟ ولماذا تتجه لها؟

رد أباظة والحيرة تكسو ملامحه:

- أمّا اسمها، فلأن خريطتها تشبه حيوان كابوريا كبيرًا يطفو على سطح الماء، وأمّا لماذا أريد السفر إلى هناك، فاعلم أن كل البشر المعدودين في أرض اللابوريا يتجهون إلى الشمال، وبعض العماليق هنا في المخيم قالوا لي إن الجزيرة التي تقع بعد مملكة يأجوج ومأجوج مأهولة بأعداد من البشر، إلى جانب بقية المخلوقات، يقيمون دولة تتساوى فيها الكائنات، لا فضل لحراصيدي فيها على شق، ولا لعملاق على أباشيري. ولذلك يقصدها البشر.

فجأة دوّت الصافرات في المكان، وأضاءت أبراج المراقبة بالأحمر والأزرق، شعر مليجي بالذعر وفكّر من فوره في سنّورية، إلا أن أباظة طمأنه، وشرح له أن هذه الصافرات تعني ضرورة أن يلجأ كلٌّ إلى خيمته للخلود إلى النوم، وأضاف بطريقة الخبراء:

– لأنهم سيشحنوننا غدًا إلى جزائر اليم؛ ليتم عرضنا على الملكة الجسّاسة.

-5-

في خيمتهما، لاحظت سنّورية شرود مليجي، وعندما استفسرت عن السبب، أخبرها بما عرفه عن جزيرة كابوريا التي حكى له أباظة عنها، وكيف أن المخلوقات كافة تعيش هناك بأمان، حتى إن تلك الجزيرة الصغيرة في أقصى شمال أرض اللابوريا، ورغم أنها الأصغر حجمًا بين بقية البلدان، فهي الأعلى من حيث معدّل النمو الاقتصادي والمستوى المعيشي. كما أن لهم جيشًا دفاعيًا قويًا، وقوته كمنت دائمًا في تاريخ هذه الجزيرة المكتشفة قريبًا، فقط قبل مائتي عام. فالجيش الكابوري، مثل الشعب الكابوري، يتشكّل مما لا يقل عن سبعة أنواع من الأجناس اللابورية؛ مما منح الكابوريين تنويعات حربية استراتيجية، مكّنتهم دائمًا من صد أي هجوم.

لم يناما ليلتها، وقبل أن تُشرق الشمس، كان مليجي قد تمكّن من إقناعها بالهجرة إلى جزيرة كابوريا، ليبنيا هناك حياة آمنة وسعيدة.

عند السادسة صباحًا دوّت الصافرات مرة أخرى، واستيقظ كل سكّان المخيم، وفي الميكروفونات الداخلية بدأت التوجيهات

للاجئين بالوقوف في صفوف والتعاون مع ضبّاط الدلهاب؛ لتيسير عمليات الشحن البحري. كانت الساحة تعج باللاجئين، وُضِع الحراصيد في جهة، والعماليق في الجهة المقابلة خوفًا من حوادث الدهس، وفي الوسط وضع الأباشير والجباليون والشق ومخلوقات أخرى. وكان كل هؤلاء على موعد مع الشحن إلى جزائر اليم.

اقتاد حرس الدلهاب أفواج اللاجئين إلى المرفأ القريب، وهناك تم شحنهم في دفعات، على أصداف سلاحف بحرية عملاقة، السلحفاة الواحدة تحمل في المتوسط عشرة أفراد، ثمانية لاجئين، يرافقهم اثنان من حرس الدلهاب بنعامتيهما. وقرب المغيب، وصلت أفواج السلاحف إلى جزائر اليم، وهي عبارة عن أرخبيل من الجزر الصغيرة، تتوسطه جزيرة كبرى، وفيها تعيش الجسّاسة.

رست السلاحف البحرية عند سواحل الجزيرة الكبيرة، وكانت تقوم بإنزال اللاجئين ثم تستدير وتغطس في المياه بأصدافها العملاقة، دون أن تنطق إحداها بكلمة. وهكذا بعد دقائق، كان اللاجئون جميعًا يقفون على ساحل الجزيرة الكبيرة بين جزائر اليم، يحيطهم عدد من فرسان الدلهاب.

كان نُعمان وشعلان وسمعان على رأس قوات الدلهاب التي قادت أفواج اللاجئين في الجزيرة، حيث دخلوا إلى الأحراش الغربية

كثيفة الأشجار، والتي تعج بطيور عجيبة وحيوانات، لم يعرف مليجي وسنّورية وأباظة أسماءها. وبعد ساعة من المشي، انقشعت الأشجار عن دير عملاق مهيب، يلفّه الضباب، وتضيئه المشاعل، كُتِب على مدخله: «القصر الملكي الجسّاسي».

-6-

عنـد مدخل القصر اسـتقبلهم كلب ذو رؤوس ثلاثـة، في كل منها عينان جحيميتان وينادونه سربيروس، مضى بهم إلى بهو القصر، ومنه إلى الديوان الملكي، حيث كانت الجسّاسة تجلس على عرشها.

دبَّ الرعـب في قلـوب اللاجئين، وبكى بعض أطفـال الحراصيد والأباشـير من هول المنظر، بينما سـجد الشـق للدابة السـوداء الهلباء المغطّاة بشـعرٍ كثيف، بحيث لا يعرف الواحد هل هي مقبلة أم مدبرة. كانـت كائنًا هائل الحجم، يغطي جسـدها شـعر أسـود كثيف وطويل، يصعب معه التعرّف على ملامحها، أو رؤية تفاصيل وجهها.

جلسـت الجسّاسـة المخيفة على عرشـها، يقف إلى جوارها كلب السـربيروس عـن اليمين، وثلاثـي الدلاهبة عن يسـارها، وعندما مال أحدهـم عليها وهمـس لها، هزّت رأسـها، أو ما يبدو أنه رأسـها. فبدأ الدلهاب في مناداة اللاجئين بأسمائهم:

– يعفور العملاق.

كان العمـلاق الطيّب الـذي رآه مليجي، في مخيّـم اللاجئين، أول مَن مثل بين يدي الجسّاسة التي سألته:

- لماذا دخلت مملكتي؟

ردَّ العملاق المرتعد:

- كنت مسافرًا وضللت الطريق.

سألت الجسّاسة:

- إلى أين كنت تسافر؟

- إلى الأباشير في عمل.

سألت الجسّاسة:

- ألا تزال بلاد العماليق مقسّمة إلى سبعة أصقاع؟

أجاب العملاق:

- نعم.

سألت الجسّاسة:

- أما زال النخل الطويل ينبت في أرضها، ويطرح ثمارًا كبيرة؟

قال العملاق:

- نعم.

قالت:

- من أي أصقاعهم أنت؟

قال العملاق:

- من بِنبُلغُول.

بشيءٍ من المرح قالت الجسّاسة:

- آه.. أنت من أحفاد الغيلان، أو بالأحرى هجين البشر والغيلان. صح؟

ابتسم العملاق وقال بهدوء:

- بالضبط يا مولاتي.

قالت الجسّاسة:

- اقطعوا عنقه!

ضجّت القاعة بعد القرار المفاجئ الذي أطلقته جلالة الملكة، إلا أن الدلهاب أسكتهم بصيحة واحدة كادت تقتلهم جميعًا، بمَن فيهم الجسّاسة.

مدّت الجسّاسة يدها المغطاة بالشعر الكثيف الطويل، وضعتها في أذنها المغطاة بالشعر الكثيف الطويل، سلّكتها، ثم قالت بطريقة رزينة وهادئة:

- أو لا تقطعوا عنقه. اتركوه. سأقتنيه، سأُبقيه في حديقة القصر.

تنفّس العملاق الصعداء، ودمعت عينه وهو يتحسس رقبته، ركع على كلتا ركبتيه وعبّر عن شكره للملكة.

على هذا النحو، مضت جلسة عرض اللاجئين على الجسّاسة، أحكام متطرفة تصدرها في حقهم، تتراجع عن بعضها أحيانًا، وأحيانًا لا تتراجع، وفي هذه الحالة ينقضّ أحد الدلاهبة أو كلب سربيروس على المحكوم ويقتاده إلى السجن لينتظر مصيره. أما السعداء الناجون، فكانوا يشعرون بنشوة عارمة، لمجرد إفلاتهم من الإعدام والحبس، حتى وإن كانت الجسّاسة ستستعبدهم في جزيرتها إلى الأبد.

بعد صبرٍ طويل، نودي على اسم مليجي، الذي امتثل بين يدي الملكة الجسّاسة، بينما يتفصّد عرقًا ويحاول ابتلاع ريقه، فلا يُبلَع.

قالت الجسّاسة، وهي تضم كفّيها تعبيرًا عن السعادة:

- واحد من بني آدم.. يممم.. طعمكم لذيذ! قل لي يا آدمي ما الذي جاء بك إلى مملكتي؟

قال مليجي بصوتٍ مرتعش:

- هارب من بطش حكّام أباشيريا.

ضحكت الجسّاسة وهي تقول:

- هارب من الحر إلى الجحيم. وأنا أرى أن أشويك وآكلك!

انهار مليجي على ركبتيه، قال وهو يبكي:

- مولاتي، سيدتي وسيدة الأراضي، سألتكِ بنفسكِ الفخيمة أن تعفي عني. فزوجتي هنا معي وهي..

استشاطت الجسّاسة غضبًا وقالت:

- مَن أذن لك بالكلام؟

ثم أشارت إلى كلب السيربيروس:

- اقطعوا عنقه.

هنا ارتفع صوت قادم من حشد اللاجئين الواقفين في القاعة:

- أنا أفديه يا سيدتي.

كان ذلـك صوت أباظة الذي تقدّم من وسـط الحشـود، وخرَّ على ركبتيه وقال:

- أنـا أفديه يا مولاتي، فهذا الإنسـان المسـكين لديه زوجة حامل، وهي معنا هنا في مملكتك. وإن كان لا بد من أن تظفري ببعض اللحم البشري، فأنا أفديه.

كان الجميـع يحملقون في أباظة الذي تقدّم ليقف بجانب مليجي، بينما ارتفعت نهنهات سنّورية وسط الحشد.

نظرت الجسّاسـة إلـى كلب السـربيروس، فتراجع إلـى موقعه في انتظار أوامر جديدة، ثم أشـارت إلى فرسـان الدلهاب الثلاثة، فانحنوا جميعهـم ليسـتمعوا إلـى تعليماتها الخافتة، ثـم عادوا إلـى مواقعهم، وقالت الجسّاسة:

- أنت لا تخاف الموت إذًا يا آدمي، وهذا الإيثار غريب على بني آدم، سأنفّذ طلبك.. فلتكن أنت أيّها الآدمي الشجاع الأول الذي يختار حكمه بنفسه في حضرتي. عفونا عن الآدمي الأول، وقررنا الاحتفاظ بالآخر، ولاحقًا ننظر ماذا نفعل به.

نظر مليجي إلى أباظة غير مصدّق لما حصل، واندفع إلى سنّورية ليعانقها، فيما توجّهت لهما الجسّاسة بالحديث:

- غدًا تأخذكما السلاحف البحرية إلى المرفأ، ومن هناك يوصّلكما جنود الدلهاب إلى حدود عماليقستان، واحذر أن أراك هنا مرة أخرى يا ابن آدم. اغرب عني!

-7-

علـى ظهـور السـلاحف البحرية العملاقـة، عاد مليجي وسنّورية وعـدد ضئيل من الناجين إلى سـاحل الدلهاب، ومـن هناك أمر نعمان وشـعلان وسـمعان فارسـين من الدلهـاب أن يقوما بتوصيـل مليجي وزوجته إلى الحدود الشمالية الغربية للبلاد.

وهكـذا، على صهوة نعامتين، يقود كل منهما فارس دلهابي، قضى مليجـي وسنّورية أيامًا في السـفر، بطول الشـريط السـاحلي لمملكة الجسّاسة، حتى وصلا إلى البوابات الحديدية العملاقة، التي تفصلهما عن أرض العماليق، وهناك تركهما الفارسـان – بعد أن أمدّا كلًّا منهما بزوّادة – قرب يافطة مهولة الحجم، كُتب عليها بالحروف العماليقية:

أهلًا بكم في اتحادية عماليقستان الفيدرالية

صُقْع بِنبلحُوت

وإلـى جانبهـا يافطـة أخـرى أصغـر حجمًـا، تحمل صـورة مظلّلة لمخلوق يشبه الحرصود، وتحتها كُتبت عبارة من كلمتين فقط:

احذر الدهس

اتحاديّة عَماليقستان الفيدراليّة

-1-

عبَر مليجي وسنّورية من البوابة الكبيرة الفاصلة بين مملكة الجسّاسة واتحاية عماليقستان، كان كل منهما يحمل زوّادة معلّقة على عصا خشبية، وكانا يتناقشان في مصير أباظة مع الملكة الجسّاسة، وتلك التضحية الكبيرة، التي أقدم عليها لينقذ أسرة مكونة من زوجين وطفل موعود في الطريق.

بعد دقائق، وجدا نفسيهما أمام غابة.. أشجار مهولة الحجم، مغطاة بكامل طولها بفروع طويلة ينتهي كل فرع منها بورقة واحدة، ورقة بحجم إطار سيّارة، إذا سقطت على رأس الواحد فلقته، إلا أن لها لونًا أخضر داكنًا وجميلًا يتعاكس مع جذوع الأشجار ذات اللون الترابي الفاتح. كانت الغابة فاتنة، شعر مليجي وسنّورية بشيءٍ من الأمان أمام تلك الأشجار العملاقة، قالت سنّورية:

- ما أحلى هذه الأحراش، ليت نُميْرًا معنا!

أمسك مليجي بيدها مواصلًا التقدم في الغابة:

- لا أشك أنه في مكان أفضل.

ثم واصلا التقدم في الغابة، قبل أن تتوقّف سنّورية فجأة وتشـد يد مليجـي ليتوقف هو الآخر، أومأت له ليسكت، ثم أشـارت إلى طفل عملاق بحجم فيل يجلس بين شجرتين. وهو قاعد على الأرض، كان في حجم فيل فعلًا، أو أكبر بقليل. همست سنّورية:

- انظر.. إنه يبكي!

قال مليجي بقلق واضح على ملامحه:

- يبدو أنه يبكي بالفعل، تعالي نبتعد.

ردت سنورية:

- حرام عليك. مسكين، إنه مجرد طفل.

علّق مليجي:

- أطفال العماليق يستطيعون قتلنا بضربة واحدة.

- سأذهب إليه.

قالت ذلك بنبرة غاضبة، واتجهت فورًا إلى العملاق الصغير.

اضطـر مليجـي إلـى اللحـاق بهـا، فوجدها واقفـة أمـام العملاق الجالـس الـذي كان ينظـر لها ويبكي، فيمـا تنظر هي نحوه بشـيء من الأمومة وتبتسم:

- لا تبكِ يا حبيبي، نحن هنا لنساعدك.. بسْ يا صغيري.. بسْ يا ماما.. بسْ حبيبي.. لا شيء يستدعي كل هذا البكاء.

نهنه الصغير:

- بل هناك.. هناك.. في الصباح مات صديقي.

«يا عيني»، قالت سنّورية وهي تُربِّت ساقه العملاقة المثنية أمامه، قبل أن تضيف:

- هذا خبر حزين، نتفهّم ألمك. لكن كيف حدث ذلك؟

مسح العملاق الصغير دموعه، ثم بسط كفه الشاسعة، ليسفر عن عصفور أزرق صغير ميّت، بحجم بلحة، كان العصفور كالنقطة على طاولة كبيرة. نهنه العملاق موجّهًا كلامه إلى سنّورية:

- صباح أخرجته قفص وخبّرته نتنزّه في الغاب، وفي الغاب، أطلقته وطيران ومبتهج، لكنه طار ابتعادًا ولم أعد أراه. تجوّلت في الغاب أفتّش، أنادي، ولم أسفر عن شيء.

قال مليجي ضاحكًا:

- لم أسفر؟

رد الصبي العملاق متعجبًا:

- لا لم أسفر. هل أسفرت أنت؟

ويبدو أن سنّورية - بشكل أو بآخر - كانت تفهم لغته الطفولية المكسّرة. أجابت:

- كيف نسفر عن شيء والعصفور في يدك أصلًا؟

نظر الصغير في كفّه فوجد العصفور، ابتسم لسنّورية وقال:

- صح!

ثم عاد للبكاء مجددًا.

قال مليجي:

- لا تبكِ على العصفور، لا يستحق البكاء، في الحقيقة، لقد خانك وهرب منك.

نهنه العملاق الطفل:

- لقد خانني عصفور!

وعاد للبكاء المتواصل. لكزت سنّورية مليجي، وقالت بسرعة:

- لا يا حبيبي، عمّو مليجي لا يقصد ذلك، العصفور لم يخُنك، هو فقط كان سعيدًا بالأشجار والشمس.

كان لكلمات سنّورية تأثير واضح على الطفل، فكل محاولاتها لمواساته أثمرت، وقد عاد الطفل العملاق للهدوء مرة أخرى، ثم إنه نظر بشيءٍ من الغضب لمليجي، وقال:

- كذّاب. أنت تخدع!

وأطلق بصقة هائلة تكفي لتملأ جردلًا ثلاث مرات. غمرت البصقة مليجي، وطرحته أرضًا.. صرخ من الخوف والقرف، فيما حاولت سنّورية أن تستعيد السيطرة على العملاق وتهدئ غضبه.

نهض مليجي، كان يشعر بالقرف من نفسه ويشم رائحة لعاب العملاق الصغير، أخذ خطوتين للوراء ثم تقيّأ ما في جوفه، بعدها أراد أن يوبّخ الطفل، إلا أنه تراجع فورًا، بعد أن فكّر في العواقب الوخيمة التي ستنتج عن ذلك.

بعد أن اطمأنت سنّورية على مليجي، سألت العملاق الطفل:

- ما اسمك يا حبيبي؟

رد الولد:

- بَق بَق.

قالت سنوّرية:

- وأين بابا يا بَق بَق؟ أين بيتكم؟

مطّ بَق بَق شفتيه علامة على عدم المعرفة، ثم عاد يبكي مرة أخرى، كان صراخه يدوّم في الأحراش، فترد عليه طيور الغابة بالمزيد من الأصوات.

ربّتت سنورية ساقه، وقالت لتطمئنه:

- لا تقلـق حبيبـي، أنا وعمّو مليجي سـنأخذك إلى البيت، معنا هنا بوصلة، وسنصل إلى المدينة إن مضينا في هذا الاتجاه.. تعالَ معنا.

فهـدأ الصغير، وقام ليقف، بينما تراجـع مليجي وهو يرقب الطول الفـارع آخـذًا فـي التعالـي، إلى أن استوى العمـلاق واقفًا بيـن فروع الأشجار، بطول ثلاثة رجال.

-2-

مضى الثلاثة يقطعون غابة صقع بنبلحوت الواقع في الجنوب الشرقي لعماليقستان والمتاخم للحدود الجسّاسية، وبعد مسافة قليلة اقترحت سنّورية على بَق بَق أن يحملهما، ليمضوا بسرعة أكبر، ودون تباطؤ نفّذ بَق بَق طلبها، فالتقط كل واحد على حدة، ووضعه على إحدى كتفيه، أمسك بهما بإحكام، ثم مضى يهرول بين الأشجار العالية. كان مشهد الغابة خرافيًا، هكذا رآه مليجي من عليائه، حتى إنه تمنّى لو التقط صورة، لكن للأسف لم تكن معه كاميرا.. في تلك اللحظة بالذات، وهو غارق في متعته بالتفرّج على الغابة من فوق، متجاهلًا صراخ سنّورية المأخوذة بالتجربة، قرر مليجي أن يضيف لثبته العلمي بعض الرسوم التوضيحية، وستكون على رأس تلك الرسوم، صورة للغابة من فوق. فكّر في ذلك، فيما كانت سنّورية تحاول أن تمسك بأحزمة النور المتفرّقة بين فروع الأشجار العملاقة.

قالت سنّورية، وهي تتمايل على الكتف التي تجلس عليها:

- بَق بَق، هل تذكر أنك مررت من هذا الطريق يا حبيبي؟

أجاب الصغير:

- لا. أو ربما لا!

شعر مليجي بالاستفزاز من الإجابة المبهمة التي قالها بَق بَق، قال له من فوق الكتف الأخرى:

- هي لا واحدة. لا تتعبنا معك يا ولد.. فاهم؟

توقّف العملاق عن المشي، قلب شفته، احتشدت الدموع في عينيه، إلا أنه تمالك نفسه ولم يبكِ. كل ما فعله هو أنه أمسك مليجي بعصبية ووضعه على الأرض، وقال:

- أنت انزل. أنا وسنّورية فقط.

وفي ثوانٍ وجد مليجي نفسه يركض للحاق بهما، وهو يصرخ معتذرًا لبَق بَق.

بعد دقائق، وصلوا إلى خارج الغابة، وكانوا أمام سهل من المنخفضات والتلال الخضراء، تحفّها الجبال شرقًا وغربًا، ويتوسطها طريق عريض. فيه توقّف بَق بَق وأعاد مليجي إلى كتفه، بعد توسّلات من سنّورية، ثم واصل المشي، إلى أن ظهر من خلف أحد الجبال أضخم عملاق رآه مليجي في حياته، اندفع نحوه بَق بَق وهتف بلوعة:

- بابا!

أنزل بَق بَق مليجي وسـنّورية عن كتفيه واحتضن أباه، وهذا الأخير انحنى من ارتفاع شاهق واحتضن ابنه، ثم سأله معاتبًا:

- أين مشيت؟

قال بَق بَق:

- الغاب مع عصفور.

قال الأب:

- ومن هؤلاء؟

رد الصغير:

- سنّورية أوصلتني من غاب..

ثم مشيرًا إلى مليجي:

- وهذا معنا!

نظر العملاق الأكبر بامتنان إلى سنّورية، وقال:

- شكرًا.

قبل أن يتذكّر بَق بَق أحزانه، ويعود للبكاء مجددًا، وهو يحكي لأبيه حكاية عصفوره الفقيد.

-3-

أصر العملاق الكبير، واسمه جُعلص بنبلحوت، أن يصطحبهما إلى بيته. قال مخاطبًا سنّورية:

– أقسم بالنجوم العالية أنتما ضيفاي ثلاثة أيام.

ودعاهما إلى وليمة من لحم طيور الرُّخ التي تربيها زوجته، إكرامًا لصنيعهما الطيب بإعادة بَق بَق إلى البيت. ومن جانبها امتنّت سنّورية لهذا الكرم العماليقي، وسمحت لبَق بَق أن يحملها ومليجي مرةً أخرى على كتفيه، فمضى الصغير وهو يتقافز أمام أبيه، في طريقهم إلى البيت.

كان بيت العماليق عبارة عن مساحة شاسعة من الأرض، ليس لها جدران ولا سقف، وتنتهي عند سفح أحد الجبال، الذي يتوسّده أفراد عائلة جُعلص. وهذا الأخير خصص مكانًا مرتفعًا وآمنًا لسنّورية ومليجي، ليضمن سلامتهما وعدم تعرضهما للدهس تحت قدميه أو قدمي ابنه أو زوجته، وزوجته هي السيدة خطيرة بنبلحوت، عملاقة طيّبة وبشوشة، بل وبنت نكتة، تطلق القفشات بين الحين والآخر.

أمام وجبة مكوّنة من الطيور العملاقة المطهوّة في قدور العماليق، مع توابل مجهولة وزاعقة، حكى جُعلص لمليجي وسنّورية شذرات من تاريخ أجداده، حيث ينحدر عماليق أصقاع عماليقستان السبعة من نسل الإنسان العملاق الأول عَوْج بن عَنَق الذي وفد إلى أراضي عماليقستان، بعد رحلة طويلة قضاها متقافزًا فوق الجبال البعيدة، حتى استقر به المقام في السهول الوسطى بعماليقستان، وهناك بدأ حياة جديدة، تغنيه عن ماضيه، وما فيه من أهوال ومصائب مثل الطوفان العظيم وحرب السنوات العشر.

في السهول الوسطى، أسس عوج بن عَنَق بيته وتزوّج من عملاقة يافعة. أنجب منها ذرية كثيرة، كوّن جيشًا كبيرًا مع أبنائه وقبيلة زوجته، وغزا الأراضي المجاورة للسهول الوسطى من كل الجهات، ثم راح بعد ذلك يتناسل مع أغلب الكائنات في منطقة السهول، وكان يختار من المخلوقات أكثرها بسطة في الجسم، ليحافظ لنسله على ميزة الضخامة والقوّة الهائلة.

أنجب عَوْج الكثير من الأبناء، وتناسَل هؤلاء عشائر وعائلات وبطونًا، أو «أعناق» كما يرد في أدبيّاتهم المكتوبة باللغة العماليقية، ومع توالي السنوات كثرت أجناس من العمالقة على حساب أنواع أخرى، فسادت قبائل وبادت قبائل، حتى انتهى الأمر إلى سبعة أعناق فقط هم شعب عماليقستان الحالية: بنبلحوت، ومنهم جُعلص

البنبلحوتي، وهم أحفاد عوج بن عنَق من الحيتان، وبوفيل أحفاده من الفِيَلَة، وبنبلغول أحفاده من الغيلان، وبنبلدب أحفاده من الدببة، وبوماموث أحفاده من الماموثات، وبوجمل أحفاده من الجمال، وآيت غوريل أحفاده من الغوريلات والقرود العملاقة. تتباين أطوال أفراد تلك القبائل وصفاتهم، فلبنبلغول وبنبلدب مثلًا شعورٌ كثيفة على أجسادهم، أما آيت غوريل فيتميزون بألوان داكنة، ويفضّلون العيش بالقرب من الأشجار، كما يفضّل بنبلحوت العيش في السواحل وقرب البحر، أما بوجمل فيكثرون في المناطق الصحراوية الجافة.

من حين لآخر، كانت بعض الدول المجاورة تهاجم قبائل عماليقستان، التي لا تحب الغرباء، ولا ترحّب بالمخلوقات الأخرى في أراضيها إلا على سبيل المرور والسفر. من الحدود الجنوبية الشرقية، حاول الدلهاب توسيع شريطهم الساحلي، ودخلوا في مناوشات مع عماليق بنبلحوت.. حدث ذلك، قبل أن يدين الدلاهبة بالولاء للجسّاسة، وبعدها عُقِدت الهدنة بين الجانبين، هدنة هشّة تشهد اختراقات دلهابية بين الحين والآخر، يقابلها ضبط لردود الأفعال من قبائل العماليق.

أما هناك في أقصى الشمال ولسنوات طويلة، اعتاد سكّان جنوب إمارة الكرنتينا القيام بالأعمال العدائية ضد قبائل شمال عماليقستان، حيث يستخدم الكرنتينيون السحر لجذب بعض العمالقة، وتسخيرهم

للعمل في قراهم الواقعة داخل حدودهم الجنوبية. وقد تحولت مسألة الجذب بالسحر إلى ظاهرة، اشتكت منها قبيلة آيت غوريل في شمال عماليقستان لسنوات طويلة.

قادت تلك الظروف التاريخية، قبائل العماليق للاجتماع، والتشاور، واتفقوا على إنشاء اتحادية عماليقستان، بقيادة مجلس من سبعة أفراد، رؤساء القبائل، وهؤلاء السبعة يصلون عبر الانتخاب. وهكذا نشأ نظام الحكم العماليقستاني قبل سنوات قريبة، إلا أنه نشأ قويًا وراسخًا، كما قادته الظروف إلى أن ينشأ فيدراليًا ومتمتعًا بلامركزية طيّعة، تسهّل لكل صقع من السبعة أن يسوس شئون القبيلة. القوانين التي تسري في بنبلدب مثلًا تختلف تمامًا عن قوانين بوجمل. أما السياسة الخارجية، فهي متروكة للمجلس السباعي، الذي يحكم بنظرية أسماها سياسيوهم: (3+1)، حيث تصدر أغلب قرارات المجلس بهذه النسبة، أربعة إلى ثلاثة.

بعد الكثير من الشرح، سأل جُعلص:

- والآن قل لي لماذا أنتما هنا؟ وإلى أين تمضيان؟

أجاب مليجي:

- هربنا من أباشيريا إلى مملكة الجسّاسة، ووقعنا في قبضة الدلهاب، وهؤلاء عرضونا على الملكة المخيفة، ونجونا بمعجزة

بفضـل تضحية صديقي أباظة، ثـم وصلنا قبل قليل إلى عماليقسـتان، ونستهدف المضي شمالًا؛ حتى نصل إلى جمهورية جزيرة كابوريا.

قالت السيدة خطيرة:

- واو! رحلة طويلة بالنسبة لكائنين قصيرين!

هنـا، ودون مقدّمـات، قامـت سـنّورية وهرولـت بعيـدًا عنهم، ثم أفرغـت ما فـي بطنها، اندهـش جعلص وزوجتـه، بينما شـعر مليجي بالقلـق عليها. طلبت السـيدة خطيرة من الجميـع أن يطمئنوا. حملت سـنّورية إلـى صدرهـا كالأطفال، ثم اسـتدارت حـول الجبـل وغابتا لبعض الوقت.

سأل مليجي:

- ماذا يحدث؟

قال جعلص:

- أرجّح أنها أمور نسائية.

بعـد دقائق عادت خطيرة بنبلحوت وهي تحمل سـنّورية، وضعتها برفق إلى جانب مليجي وقالت بابتسامة:

- سنّورية حامل، مبروك.

-4-

بعد أن فهم مليجي وسنّورية أن اليوم العماليقي بعشرة أيام عادية، وجدا نفسيهما مضطرين للبقاء شهرًا كاملًا، تنفيذًا للقَسَم الذي قطعه جُعلص بنبلحوت على نفسه. ورغم طول المدّة، إلا أنها كانت فرصة مناسبة جدًّا للزوجين؛ ليحصلا على قسط وافر من الراحة، يعوّضان به المجهودات الكبيرة التي بذلاها في الهروب من أباشيريا، ثم ساحل الدلهاب وجزائر اليم، رجوعًا إلى شمال الشريط الساحلي، ووصولًا إلى صقع بنبلحوت في عماليقستان. كانا قد قررا أن يمكثا لأيام معدودة، لكن جعلص تشبّث بوعده وقسمه، حتى بعد أن شرحا له الفارق بين التوقيتين العماليقي والعادي، وحتى بعد أن حكيا له عن أهمية السفر مبكرًا إلى الشمال، قبل أن يبدأ حمل سنّورية في التحوّل إلى عبء، كلما اقترب الموعد الذي ستضع فيه.

خلال ذلك الشهر، أحب مليجي وسنّورية حياة العماليق وأحبّا جُعلص وخطيرة. كان أهل بنبلحوت، ورغم العِرق البحري فيهم، شعبًا جبليًّا، انتقل أجدادهم من البحار إلى الجبال بعد أن تناسلوا مع عوج بن عَنَق، وقد فرض عليهم ذلك المزاج الجبلي نوعًا من حياة

الكسل والهدوء، ومنحهم بالًا رائقًا بسبب منظر البحر المقابل للجبال مباشرة، فأحبوا الغناء والرقص، وكانت ليالي السمر التي يقيمونها، فرحًا لهم وعذابًا متواصلًا لمليجي وسنّورية اللذين تتزلزل الأرض من تحتهما، كلما دبك العماليق ورقصوا، ويكادان أن يصابا بالصمم عندما يشرع عماليق بنبلحوت في غنائهم الجماعي. لكن، على الرغم من ذلك، فقد كانا مطمئنين ويشعران بالأمان، لا سيّما بعد تعهُّد جُعلص بأن يضمن لهما سفرًا آمنًا عبر أصقاع عماليقستان السبعة، عن طريق كروت توصية من طرفه، يشهرها مليجي في كل صقع عندما تقتضي الحاجة.

كانت السيدة خطيرة بنبلحوت أيضًا مثالًا للكرم والنخوة العماليقية، وقد أَوْلَت سنّورية اهتمامًا خاصًّا باعتبارها عروسًا شابة مسافرة وحاملًا، فأمدّتها بأعشاب لتقويتها، واصطادت لها الأبقار من المراعي وراء الجبل، لتزوّدها وطفلها بالقدر الكافي من التغذية، حتى المشي من مكان إلى آخر وفّرته السيد خطيرة خلال ذلك الشهر على سنّورية، إذ حملتها معها في كل مكان، وحرصت على تقديمها لصديقاتها في جلسات نسوان الصقع لتبادل النميمة والنكات البذيئة.

اتخذت خطيرة بنبلحوت سنّورية صديقةً لها، حتى إنها أفشت لها الكثير من أسرار حياتها الشخصية، وحكت لها عن قصة الحب القديمة بينها وبين جُعلص، والخلافات التي تدب بينهما بين الفينة

والأخرى، بسبب طموحاته السياسية ورغبته في خوض انتخابات المجلس السباعي مرشّحًا عن صقع بنبلحوت، بينما تؤمن خطيرة بأن حياة الدعة والهدوء والالتفات لتربية بَق بَق أهم بكثير من أن يهدر جُعلص عمره وصحته وأعصابه في السياسة ودهاليزها؛ خاصة وأن بشائر الحرب تلوح من حينٍ لآخر.

كان جُعلص يعمل صيّادًا لما يسمّيه العماليق بالحيوانات الصغيرة، فهو يصيد الخيول البرّية والأغنام والأبقار والحمير الشاردة ويبيعها، والتجّار الذين يشترونها بدورهم إما يبيعونها حية لتُستخدم في التنقّل، أو يعلّبونها ويبيعونها بأسعار أعلى، ويصدرون منها إلى أباشيريا ويأجوج ومأجوج، حيث تُباع كسلعة غذائية رائجة.

أما الصغير بَق بَق، فلم يصل إلى سن المدرسة بعد، وربما يلتحق بها بعد عام، ولكن هذا لا يعني أن جُعلص لا يلقنه بعض الدروس، ويدفعه لتعلم الأبجدية العماليقية الآخذة في الانقراض؛ بسبب الغزو الثقافي القادم من الجنوب، من ناحية الأباشير والحراصيد، حيث يستخدمون الحروف العربية.

مع تلك الأسرة السعيدة، انقضى بمليجي وسنّورية شهرٌ كامل، استعادا فيه كامل حيويتهما، ونفّذا أيضًا قَسَم جُعلص البنبلحوتي، وأصبحا بعده جاهزين للرحيل.

-5-

جهّـز جُعلـص البنبلحوتي حصانيـن قويين من بين المواشـي التي يصطادهـا، كما أعد زوّادتين كبيرتين لمليجي وسـنّورية، حمّل واحدة بالأطعمـة والأخرى ببعض المعدّات الخفيفة والضرورية مثل الحبال والأدويـة العشـبية، كمـا أمدهمـا ببطاقات تحمـل توقيعـه، كُتِب فيها بترتيب الأصقاع التي سيمرّان بها، وفقًا لخطِ السير الذي رسمه لهما:

«إلى سـيد الصقع وعظيمه.. الكثير من التبجيل لجلالتك المهولة. هذه ورقة توصية بالإنسـان مليجي الصغير وزوجته الأباشيرية سنّورية آل ببر، هما ضيفاي. فأرجو تسـهيل مهمتهما بالعبور شـمالًا حتى نهر البكِيفو ثم إلى إمارة الكرنتينا..

انحنائي لقامتك العالية

المخلص: جُعلص بن فتلة البنبلحوتي»

أما السـيدة خطيـرة، فودّعت سـنّورية بكثيـر من البـكاء، ورفعتها عاليًا أمام عينيها وجعّرت معلنةً عن حزنها، فبكت سنّورية أيضًا، بينما بقـي بَق بَق يتقافز إلـى جانب والديه، فيحدث دويًّا كبيـرًا عند ارتطامه

بـالأرض. الصغيـر لم يكن يـدرك أن سـنّورية وعمّـو مليجي راحلان بلا عودة.

كان وداعًـا مؤثـرًا، انتهـى عندمـا أوصلهمـا جُعلص إلى مشـارف الصقـع التالي، بنبلدب، حيث أنزلهما، ووقف يتأملهما وهما يمضيان شمالًا، لوّح لهما، ثم استدار عائدًا إلى صقعه.

-6-

بعد مسيرة يوم كامل فوق الحصانين في ضواحي بنبلدب، التقى مليجي وسنّورية بعملاق هائل، يغطي وجهه وكتفيه شعرٌ كثيف، وله أنف مثلث مثل الدببة، استوقفاه، وقدما له رسالة جعلص المكتوبة باللغة العماليقية، قرأها العملاق، ثم أرشدهما إلى بيت سيد الصقع وعظيمه، السيد أكبر بنبلدب، وقد أكرم الرجل وفادتهما، واستضافهما في بيته وسمح لهما بالمبيت فيه، وأمّن لهما مكانًا مرتفعًا ليجنّبهما خطر الدهس، وأمد حصانيهما بالأعلاف والماء.

وفي اليوم التالي، أرسل أحد رجاله ليرافقهما إلى المشارف الفاصلة بين أراضيه، وأرض صقع بومامـوث، وهناك أيضًا كانت لتوصيات جُعلص مفعول السحر؛ إذ كانت الرسالة تعني الكثير من الأمان والتسهيلات للإنسان والأباشيرية المسافرين في البلاد الشاسعة. وفي بومامـوث رأيا حيوان الدكّاك المهيب، وهو أكبر مخلوق في أرض اللابوريا، فالدكّاك بحجم عشرين فيلًا، وله قوائم مفلطحة جدًّا وعريضة، ويستخدمه البومامـوثيون في تسوية الأراضي وتمهيد الطرق، ولذلك أيضًا يطلقون عليه المُمهِّد. وقد وصلا هما

وجواداهما على ظهر واحد من حيوان الدكّاك، في أقل من ساعة، إلى الصقع التالي، حيث البنبلغوليين، أصحاب الوجوه المخيفة والأصوات المرعبة، والذين لا يعملون إلا بالليل، بينما يقضون نهاراتهم نائمين في مغارات عملاقة في جوف جبال بنبلغوليا العالية، حيث أقاما لأيام في ضيافة الميموني بنبلغول كبير القبيلة، وهذا الأخير أمّن وصولهما إلى صقع بوفيل، ثاني أكبر أصقاع عماليقستان من حيث المساحة بعد بوجمل، والأكبر من حيث الكثافة السكّانية، ومن هناك قطع مليجي وسنّورية صحراء شمال البلاد، في خمسة أيام، حتى تم لهما الوصول بالسلامة، إلى صقع آيت غوريل، العماليق الشماليين الذين يعيشون في الغابات.

كانت رحلة طويلة، حتى إن حجم بطن سنّورية في آخر الرحلة اختلف عنه عند وصولهما صقع بنبلحوت، فبان عليها الحمل، وبدأ بطنها في التكوّر. لكن، رغم ذلك، ساهمت بطاقات وتوصيّات جُعلص في جعل رحلتهما غير شاقة؛ لأن العماليق احترموا طلب جُعلص، وعملوا بالتقاليد العماليقية، فأكرموا المسافرين العابرين وأمدوهما بما يلزم.

-7-

كان أفراد قبيلة آيت غوريل سود البشرة، داكني الشعر، لهم ملامح غليظة، يتمتعون رغم ضخامتهم بمرونة كبيرة، وهم من فئة العماليق المتوسطين، فليسوا بحجم البوماموثيين مثلًا أو البنبلحوتيين، لكنهم رغم ذلك كانوا مثل كل سكّان الحدود شجعانًا وأهل حرب، يتغنّون في أهازيجهم وأناشيدهم الشعبية ببطولات أسلافهم، وتضج أمثالهم التراثية بحكم ونصائح وخلاصات عن الشجاعة، وأهمية التصدي لسحر وشعوذة الكرنتينيين، الآيت غوريليون معتدّون بميراثهم العماليقي، ويعتبرون أنفسهم خط الدفاع الأول عن شمال عماليقستان.

وبسبب هذا التاريخ من الحساسية في التعامل مع الحدود، والأخطار القادمة من ورائها، أوصل مليجي وسنّورية وفدٌ من رجال سعدان آيت غوريل حتى ضفاف نهر البكيفو الفاصل بين اتحادية عماليقستان وإمارة الكرنتينا، وهناك منحوا مليجي وسنّورية مزيدًا من العتاد، حتى إنهم زودوهما ببعض الأسلحة البيضاء، مثل سكين فضّي منقوش، وأهداهما سَبَلوه بن سعدان آيت غوريل، ولي العهد، حجرًا

كريمًا خاصًا اسمه حجر المنير، كان قد أرسل لاستيراده من جبل التخوم؛ حيث يضيء الحجر في الظلام، كما أعطاهما أيضًا خريطة كبيرة لأرض اللابوريا، وأخرى أصغر، رسمها بصّاصوهم، تبيّن بعض معالم إمارة الكرنتينا الصغيرة وأهم تضاريسها والطرق الرئيسية فيها.

وأخيرًا، قبل أن ينصرف الآيت غوريليون، قال كبير الوفد سَبَلوه بن سعدان، موجّهًا حديثه لمليجي وسنّورية:

- سنأخذ الحصانين معنا، لا يجب أن تذهب ثروات عماليقستان إلى الكرنتينيين أبدًا، هذه هي القوانين كما تعلمان.

ثم أضاف وهو يحكم قبضته عليهما:

- احذرا هذا النهر المجنون وسكّانه، طبعًا تفهمان أن اسمه البكيفو، لأنه يتصرّف تصرّفات هوجاء، وعلى كيفه!

ثم سحب رجاله العماليق أصحاب البشرة السوداء، ومضوا مبتعدين.

اللعب مع نهر البكِيفو

-1-

مشيًا عكس اتجاه مياه النهر، التي تنبع في الشمال الغربي من بحيرة كبريتيـة تقع بين جبال الكرنتينا، وتسـيل إلى الجنـوب ناحتةً مجراها، وقـرب منتصفـه يقطـع البكيفـو خـط الحـدود، وينتقـل إلـى أراضي عماليقسـتان، متّجهًا إلى مصبّه في الجنوب الشـرقي فـي اليم الكبير، مشـى مليجي وسـنّورية آملين فـي أن يصلا إلى المـكان، الذي تضيق فيه المسـافة بين ضفتي النهر، على بعد مسـيرة يوم ونصف اليوم، كان سَـبَلوه بن سـعدان قد وصف لهما طريقه، لأن محاولـة عبور الحدود عبر سلسلة الجبال الغربية الوعرة كانت فكرة فاشلة تمامًا وخطيرة.

في الطريق، كان مليجي يفكّر في كل الاحتمالات، لم يعد يشغله ما فات، لم يعد يفكّر في مصير غندور بن هنكال الحراصيدي أو صديقه أباظة في مملكة الجسّاسـة، وحتى نُميْر لـم يـرد له على بال، وبالأولى القول إن «علي علي» كذلك لـم يعد يزور أفكاره. لـم يكن يشغله سوى الوصول إلى كابوريا، وابنه الذي يتشكّل في أحشاء سنّورية، وسنّورية نفسـها، رفيقة دربه، المخلصة الجميلة، الشجاعة، الذكية، الطيّبة. قال

لنفسه: «سأفعل أي شيء لنصل إلى كابوريا، أي شيء، سأصنع جسرًا من نار، لأعبر عليه أولًا وأؤدّب هذا النهر ثانيًا. سأتبوّل عليه من فوق». وليت مليجي لم يفكّر على هذا النحو؛ لأنه ما إن أنهى ملحمته التي لم تحصل إلا داخل رأسه، حتى تحوّل لون النهر في أقل من ثانية إلى الأحمر القاني، هكذا، دون أية إرهاصات، شهقت سنّورية وتراجعت إلى الخلف، بينما ظل مليجي واقفًا يحدّق في النهر، لاحظ أن المياه القريبة منه لها لون قانٍ أكثر دُكنة من بقية المياه، استنتج أن النهر انزعج من تفكيره السلبي تجاهه، وهذا يعني أن النهر يقرأ الأفكار.

- براڤو!

سمعها مليجي داخل رأسه، من صوت يشبه الفحيح.

- ها قد عرفت..

فحَّ الصوت الشاحب.

- اقترب!

لم تكن تلك الكلمات تحدث إلا داخل رأس مليجي. ومن موقعه داخل دماغه واصل النهرُ الهمسَ:

- اقترب أكثر.

تقدّم مليجي واقترب من النهر، حذّرته سنّورية، لم يسمعها، اقترب أكثر. نادت عليه، ودَنَت منه لتوقفه، صرخت باسمه ثلاث مرّات، وفي

الأخيرة فقط اخترقت الصرخة أذنيه، فجأة أفاق من تهويمته. في الحال التفت إلى ناحية سنّورية، موليًا ظهره إلى النهر وركضا مبتعدين. فهم مليجي فورًا أن البكيفو ليس في مزاج جيد، ولا يشعر بالتعاطف ناحيته. كان يعرف أيضًا حالة الخدر تلك، التي تصيب الدماغ من خبراته مع الكيوف في حياته الأولى.

قال لسنّورية بعد أن ابتعدا بمسافة آمنة:

- النهر كان يكلمني، صوته كالفحيح، ويصدر من داخل دماغي كأنه جزء مني. عندما عرفت أنه يقرأ الأفكار قال لي براڤو. الحقيقة، لا أعرف إن كان ذلك صوت النهر، أو صوت واحد من سكّانه.

أشارت عليه سنّورية بأن الابتعاد عن هذه البقعة والمضي صوب الشمال الغربي هو الحل الأمثل لاكتشاف ذلك.. وافقها مليجي، وواصلا الطريق إلى الشمال الغربي.

-2-

قالت سنّورية:

– غريب هذا النهر الذي يغيّر لونه فجأة، لست مطمئنة للاقتراب منه.

اعترف مليجي:

– أنا السبب، فكّرت أنني سأتبوّل فيه.. فغضب.

كانا قد تركا مسافة آمنة عن النهر، وتوغّلا قليلًا في أراضي آيت غوريل، تفاديًا للوقوع في النطاق، الذي يقع تحت سطوة سحر البكيفو، ثم واصلا مشيهما شمالًا. في الطريق فحصا الاحتمالات، وغنّيا، وشبكا أيديهما، ثم أفلتا أيديهما، فعلا ذلك مرارًا. خرجا من المناطق الآهلة في الصقع ودخلا إلى منطقة الأحراش، حاولا التقدم بين فروعها المتشابكة، مفضلَيْن الابتعاد عن البكيفو، لكن ذلك أصبح مستحيلًا بعد مسافة كبيرة قطعها مليجي وسنّورية، فاضطرا للعودة والمشي بمحاذاة النهر مرة أخرى، على أن يتولى كل منهما تنبيه الآخر، في حال محاولة النهر الدخول إلى رأسيهما.

فردت سنّورية الخريطة، مالت على مليجي وقالت:

- وفقًا لخريطة سَبَلوه بن سعدان، ستضيق المسافة بين ضفتي النهر إن سلكنا هذا الاتجاه.

قال مليجي:

- وهناك سنعبر تلك المسافة قفزًا.

من بين الأعشاب على ضفة النهر، قفز ضفدع أخضر كبير، وقال:

- أكبر خطأ.. تلك منطقة خطيرة.

شهقت سنّورية وتراجعت وأشهرت مخالبها، فيما وقف مليجي مرتعدًا من الكائن الأخضر ذي الصوت السميك، وقد ظنه جنيًّا متشيطنًا. قالت سنّورية:

- مَن أنت؟ وماذا تريد؟

ردَّ الضفدع:

- أنا آسف إن كنت أفزعتكما. يبدو أنني قفزت إلى طريقكما بشكل مفاجئ. أعتذر، رغم أن مشيي هو القفز بطبيعة الحال. اسمي الضفدع الأخضر، كنت من سكّان النهر، وهجرته قبل فترة، كانوا يعذبونني..

استدار الضفدع الأخضر، وأشار إلى جرح في ظهره، تخرج منه غُرز الجراحة، وقال:

- أقضي نقاهتي هنا في الضفاف، البعيدة عن سطوة النهر، وكنت أتمشى في الجوار حفاظًا على ليونة مفاصلي، فسمعتكما تتكلمان عن عبور البكيفو. أنا أستطيع أن أرشدكما إلى طريقة للعبور.

بتوجّس سأل مليجي:

- ولماذا قلت إن خطتنا للعبور خاطئة؟ ما مصلحة سَبَلوه ابن سعدان في تضليلنا؟

رد الضفدع الأخضر:

- سَبَلوه هذا لم يسبق له أن عبر النهر ولا حتى حط قدمًا فيه.. والعبور من المضيق فرضية نظرية تمامًا وغير واقعية أبدًا، فهو موطن لبعض جنيّات النهر من آكلات اللحوم. عند الحديث عن النهر، سيكون الأجدى أن تستمع لكائنات النهر، أليس هذا منطقيًا؟

ثم استدار وقفز.

نادته سنّورية قبل أن يبتعد:

- يا ضفدع يا أخضر.. يا سيد ضفدع، صح، كلامك منطقي، لا تقفز. تعالَ.

توقّف الضفدع الأخضر عن القفز، اقتربت منه سنّورية، وتبعها مليجي، قالت:

- هل يحتاج جرحك لبعض الأعشاب المطهّرة؟

ردَّ:

- أنتِ طيبة سيدتي على خلاف هذا الإنسـان. هل تعرفين، عندنا مثل يقول: احذر البشـر، كما تحـذر الأفاعي والمطـر! لكن لا بأس. جرحي بخير وفي طريقه للاندمال. كل ما أخشاه هو أن يجرحكم هذا النهر الشرير كما فعل معي.

تساءلت سنّورية:

- هل لي أن أسألك ماذا فعل معك بالضبط؟

مسـح الضفدع الأخضر وجهـه، أطلق نقيقًا، ونظر لسنّورية لثوانٍ ثم قال:

- حبسني رجال النهر في قاعه لفترة، تعرضت لكل أنواع التعذيب والتنكيـل، صلبوني وجلدونـي وعضّوني ولدغوني وكتموا أنفاسـي، أدخلونـي في مطاردات مع تماسـيح صغيرة، وجعلوني ضفدع سـباق فـي راليّـات ثعابين الماء. وانتهى بـي الحال مطرودًا مـن النهر، قرروا أن موتي سـيكون هدية لـي، وقالوا إن تركي لأعيـش وحيدًا مجروحًا ومنبوذًا، سيكون نوعًا من العقاب الممتد. لقد قتلني النهر!

أشـفقا على الضفـدع الأخضر.. مليجي حاول أن يبدو متماسـكًا، أمـا سـنّورية فأبدت تعاطفها بشـكل عملي، وقدمت لـه بعض الأكل، أكله بامتنان، معبرًا عن سعادته عبر النقيق المتواصل.

قال مليجي:

- حسنًا، ستدلنا إذًا على المكان الذي سنعبر منه.

قال الضفدع الأخضر، وهو يمضغ الطعام:

- بكل سرور، على مسيرة نصف يوم من هنا توجد مجموعة من الجزر الصخرية الصغيرة منثورة بعرض مياه النهر، معبر طبيعي، لا يعرفه إلا القليلون.

-3-

انطلقا وراء الضفدع الأخضر.. كان يقفز بسرعة وتعدو وراءه سنّورية، وفي المؤخّرة يعافر مليجي للحاق بهما. كانوا يمضون بمحاذاة النهر، لكن عن بعد، مروا على مناطق ذات فروع متشابكة، وأخرى جرداء، ومن بعيد بدأوا يبصرون سلسلة الجبال الغربية الممتدة بين الكرنتينا وعماليقستان، وبعد ساعات من العدو والهرولة والقفز، توقّف الضفدع الأخضر، وأشار صوب النهر:

– هناك، إن مشيت في خط مستقيم من هنا، تصل إلى الجزر الصغيرة.. اتبعاني.

بالقرب من الضفّة، وكانت المياه رائقة، وقفوا يتأملون تسعة وأربعين جزيرة صغيرة بحجم قدم، تصل بين الضفتين.. بين الجزيرة والأخرى متر واحد، لكن الأكيد أن المياه حول سلسلة الجزر عميقة جدًّا.

كانت المسافة كبيرة بين الضفة والجزيرة الأولى، وقف مليجي وسنّورية يتأملان المشهد ويقيسان المسافة والقفزات، بينما وقف الضفدع الأخضر بعيدًا، لأنه يخاف غدر النهر.

قالت سنّورية:

- يبدو العبور ممكنًا. ما رأيك؟

أجاب مليجي بإحباط:

- يبدو مخيفًا بالنسبة لي، أخشى أن أفقد توازني، فأسقط في المياه ويبتلعني النهر.

فكّرت سنّورية:

- إذًا فلنجد طريقًا آخر.

قبل أن تنهي كلماتها، شعرت سنّورية بحركة خلف ظهرها، استدارت بسرعة لتجد الضفدع الأخضر قافزًا في الهواء ناحيتهما. دفعت مليجي خارج مسار القفزة، وتفادت الضفدع بمرونة، فسقط في النهر وأحدث ارتطامه بسطح الماء بعض الجلبة. وقفت سنّورية سريعًا وعاونت مليجي على النهوض، وهي تقول:

- اركض.. كان يخدعنا!

وجريا مبتعدين عن ضفة البكيفو.

-4-

بعد أن ابتعدا بمسافة آمنة، قال مليجي لاهثًا:

- كنت أشك فيه.. بدا مريبًا.

ردّت سنّورية:

- أنا للأسف خُدعت فيه وصدقته. من الجيد أني تنبهت إلى محاولته ليوقعنا في النهر.

تساءل مليجي:

- هذا يعني أنه كان يخدعنا فيما يتعلق بالطريق، الذي وصفه لنا سَبَلوه بن سعدان.

وافقته سنّورية، وواصلا المشي إلى الشمال الغربي.

-5-

من بعيد، كانا يتأملان نهر البكيفو الذي كان يلفت نظرهما بتصرفاته الغريبة، فتارة تفيض المياه على الجانبين، وبعدها بدقائق، وبقدر المسافة التي يقطعانها، كانت تغيض مياهه، وكانت تتلون بين الوقت والآخر، أحيانًا بشكل مفاجئ، وأحيانًا بشكل تدريجي، ومرّات يقذف إلى السماء بطلقات مائية ترسم خطًّا في الهواء. كان البكيفو كطفل يلعب، طفل له مزاج خاص ومتقلّب، يغني حينًا ويبكي حينًا، وتقلّباته لا ترتبط بفصول السنة ولا تغيّرات الطقس، بقدر ارتباطها بالمزاج العام للكائنات العجيبة التي تسكن النهر.

قرر مليجي وسنّورية أن يستريحا، جلسا واستخرجا من زوادتيهما بعض الأكل والحبوب الجافة وراحا يأكلان، امتد الصمت لثوانٍ قبل أن تقطعه سنّورية:

– هل سنصل إلى الكرنتينا يا حبيبي؟

بثقة ابتسم مليجي، وقال:

– سنصل إلى كابوريا الأبعد من الكرنتينا يا حياتي، سنتخطى هذا النهر المراهق، ثم سنعبر الكرنتينا، ونعبر بلاد يأجوج ومأجوج، ونصل إلى كابوريا الغالية.

ابتسمت سنّورية، لكنها بقيت قلقة، كانت التغييرات الكيميائية في جسدها بفعل الحمل تعمل على تلبيد مزاجها، وجعلها عصبية، إلا أنها كانت تحاول طوال الوقت أن تخفي ذلك، وتوظّف كل تركيزها وطاقتها لإكمال المشوار.

لملما أغراضهما وعاودا السير، كان المضيق يبعد عنهما مسيرة نصف يوم آخر، فقضيا الطريق في التخطيط لحياتهما المرتقبة في جزيرة كابوريا، وتخيّل المستقبل الذي ينتظر الولد نُميْر الصغير في بلاد الحرية والأحلام، أو «بلاد كل الخلق»، كما يسميها أهلها والطامحون إلى الهجرة إليها..

-6-

كانا على وشك الهلاك من المشي والتعب عندما وصلا ناحية المضيق، قررا أن يستريحا قليلًا، ويتفحصا زوّادتيهما لاستخراج أي أدوات قد تعينهما على العبور. فردا جسديهما، وبعد ساعة كانا جاهزين للعبور.

اقتربا من ضفة النهر، كانا يحرسان بعضيهما، ويراقبان الجوار في صمت وتوجّس. قاست سنّورية المسافة بين الضفتين، وقدّرت أنها خمسة أذرع. سألت مليجي:

– هل تستطيع ؟

ردَّ بعصبية:

– بالطبع لا أستطيع يا سنّورية، أنا لست سنّورًا ولا كلبًا، ولديّ هذه الترهّلات، لا أستطيع العدو والقفز لمسافات طويلة. فماذا نفعل الآن؟

زأرت سنّورية، كانت تلك زأرتها الأولى منذ زواجهما، قالت

مكشرة عن أنيابها:

- ليس الآن يا مليجي، لا يصح أن تقول هذا الكلام الآن، ستقفز، وستعبر، وسأمسك بك من الجهة الأخرى إن كانت قفزتك قصيرة. قبل قليل كنت تعدني بالوصول إلى كابوريا، والآن تشعر بالعجز؟ ستقفز يا مليجي.. سأدربك.

ابتعدت سنّورية عن النهر، بمخالبها رسمت مسافة مترين على الأرض، ركضت وقفزت فوقهم بكل سهولة، ثم طلبت من مليجي أن يقفز.

سقط مليجي في منتصف المترين، شعر بالسخط على نفسه، طالبته سنّورية بأن يرجع للوراء ويركض، ففعل، زادت قفزته قليلًا. فطلبت منه تكرار القفز، وهكذا راحت تدرّبه لساعات، وفي النهاية كان مليجي قد قارب الوصول إلى المسافة المنشودة، وكانت الخطة هي أن تمسك به سنّورية وتسحبه إلى الضفة.

كانت سنورية قد جرّبت نفسها في القفز لمسافة مترين، وهي تحمل زوّادة، ونجحت، لذلك لم تجد صعوبة في نقل الزوّادتين على مرتين إلى الضفة الأخرى، وفي النهاية وقفت منتظرة مليجي ليقفز.

رجع مليجي عشر خطوات إلى الخلف، نظر إلى النهر ثم رجع عشر خطوات إضافية، وقاس المسافة مجددًا، فشعر أنها صغيرة،

ورجع عشر خطوات جديدة، وظل يتراجع على تلك الوتيرة حتى وصل إلى سبعين خطوة، سحب نفسًا عميقًا ثم شرع يركض، ركض بكل قوته، كانت خدوده ترتج وشعره يتطاير، ركض كالمجانين، وعندما ضربت قدمه آخر نقطة في الضفّة، وقبل المياه بخطوة واحدة قفز مليجي قفزته الكبرى، وفي الجهة الأخرى كانت سنورية تقف في انتظاره، بل إنها مدت يدها بالفعل لتتلقفه، لكنه لم يصل؛ ذلك لأن يدًا مائية ضخمة انبثقت من النهر وقبضت على مليجي، علقته في الهواء على ارتفاع مترين من سطح النهر.

-7-

كانت سنّورية تصرخ ولا تعرف كيف تتصرف، وكانت القبضة المائية تحكم سيطرتها على مليجي، الذي بدا وكأنما فقد الوعي.

صرخت سنّورية وزأرت وبكت، ونادت باسم مليجي مئات المرات، دون أن يرد عليها.

في تلك الأثناء التي ماتت فيها سنّورية ألف مرة من القلق على مليجي، كان هو يحلم، أو يسبح في الجو، سمع بوضوح النهر يقول له بصوته الشبيه بالفحيح:

- أمسكت بك.

رمته القبضة عاليًا ثم تلقّفته، شهقت سنّورية هلعًا على زوجها الذي تتلاعب به يد النهر. فكّرت أن تقترب وتتوسّل له، لكنه كان أسرع منها، همس في رأسها:

- كنت ألاعبه فقط.. سأتركه.

امتدت يد النهر، ووضعت مليجي على الضفة الأخرى قرب سنّورية. احتضنت جسده المبلل، كان لا يزال فاقدًا للوعي.

اقتربت سنّورية من النهر وجثت على ركبتيها امتنانًا لجميله، فهمس النهر في رأسها بصوته الشبيه بالفحيح:

- كان هذا درسًا له.. لا أحد يجرؤ على أن يتبوّل في البكيفو.

قالت سنّورية داخل رأسها وهمسًا على شفتيها:

- العفو أيها البكيفو العظيم.

همس النهر:

- والدرس الحقيقي.. سيتعلّمه هذا المسكين.. هناك في الكرنتينا!

مأساة في الكرنتينا

-1-

حسب ما حكاه له العماليق، عرف مليجي أن إمارة الكرنتينا أُنشئت قبل ثلاثمائة عام ونيف، وبذلك تكون الإمارة من أحدث دول أرض اللابوريا، وقد أُقيمت في البداية كما يشير اسمها، لتصبح حَجْرًا صحيًّا للمصابين بالجذام والأمراض المميتة من بقية الدول؛ خاصة البشر منهم لأنهم أصحاب المناعة الأضعف بين بقية المخلوقات، كما أنهم ناقلون ممتازون للعدوى.

البداية كانت بسبعة مجذومين عميان، كانوا أول الواصلين إلى الكرنتينا، التي كانت في ذلك الوقت مساحة من المنخفضات والمستنقعات والأعشاب الرطبة والسبْخات المتجاورة، تعلو أرضها مباشرة طبقةٌ من الضباب الدائم، ناتجة عن تبخّر مياه المستنقعات والأعشاب؛ لذلك فإن جوها رطب ولزج وضبابي دومًا.

المجذومون العميان السبعة، كانوا خمسة إناث ورجلين.. أقاموا في الكرنتينا حتى موتهم، وتزاوجوا بشكل عشوائي وشاذ؛ إذ نكح

الجميعُ الجميعَ، وأنجبت النساء للرجلين ذرية هائلة من وارثي جينات المرض، كان أطفال أهل الكرنتينا عميانًا أيضًا، وظلوا كذلك لسنوات طويلة، قبل أن تحدث الطفرة الجينية وتظهر أجيال مبصرة، تعاني من تشوّهات أخرى غير العمى.

مات الرجلان قبل أن تموت النساء، ومع زيادة الأعداد، ووفود عميان ومجذومين ومرضى جدد، اضطرت الكرنتينيات إلى إقامة ما يشبه نظام الحكم. ولأنهن عمياوات، ولم يرين بعضهن البعض، اعتمدت الطبيعة معهن نظامًا انتخابيًّا غريبًا، حيث كانت الأعلى صوتًا، وصاحبة القدرة الأعلى على الردح والشرشحة هي الزعيمة، وتلقّب بـ «سيدة الكلام»، وهي مَن تستطيع أن تسيطر على هذا الحشد من العميان. وهكذا بدأت سلسلة زعيمات الكرنتينا أو سيدات الكلام بسعداوية طويلة اللسان، التي أورثت ابنتها تعويذة الشخّاخة، وبالتعاقب، أسست العمياوات أسرة حاكمة، توارثت الزعامة بالردح والصوت العالي وقلة الأدب، عبر تاريخ الكرنتينا الممتد؛ وصولًا للزعيمة الأخيرة بوني بياض العينين.

مع مرور السنوات والطفرات الجينية للكرنتينيين، بدأت أعداد المبصرين في التزايد، وظهرت أجيال أقوى من المجذومين والمُشوّهين الأوائل، نتيجة لعمليات زواج انتخابية، أشرف عليها العميان؛ بغية إنتاج مواطن كرنتيني قوي وغبي، يتم تجنيده ضمن

النضاليين - الجيش - وفقًا لوصف أصحاب الشأن. بعد عدّة عمليات، استطاع العميان الحاكمون إنتاج جنودٍ مشوّهين ومتخلّفين عقليًّا، شرسين وأغبياء أمام أي خطر خارجي يهدد الكرنتينا. وبفضل هؤلاء، وبفضل كتائب السحرة أيضًا، تمكّن الكرنتينيون مرارًا من صد غزوات يأجوج ومأجوج، حتى إنهم باغتوهم عدّة مرّات.

تراكم التاريخ الكرنتيني، وبدأوا في تكوين العادات والتقاليد، وبالمثل ظلوا يتزاوجون إلى أن وصلوا إلى شفرتهم المميزة، سبعة أنواع يُنسب كل منها إلى واحد من العميان المجذومين أبناء الرعيل الأول: مجذومون، عميان، وفيهم الحُكم، ومجانين، والذين نجوا من الحرق سموا بالمحروقين، والذين وُلِدوا بعيوب خلقية فادحة سموا بالمعاقين. أما الممسوسون، فهم سفراء الكرنتينا لدى الجن. والأقزام، وهؤلاء آخر مَن وفد على الكرنتينا والأقل عددًا.. وبقيت السيادة بين هؤلاء جميعًا للعميان.

كل هذه المعلومات لم تمنع مليجي وسنّورية من المضي شمالًا متوغّلَيْن في أراضي الكرنتينا، سعيًا وراء حلمهما، ببلوغ جزيرة كابوريا.

-2-

قبض مليجي على السكين الفضية المنقوشة، التي أعطاها له سيد صقع آيت غوريل وعظيمه سعدان آيت غوريل. مليجي كان يمضي وقلبه يرتعش، لكنه يمضي. وضع كتفه في كتف سنّورية وتوغّلا في أراضي الكرنتينا.

كان الطريق رطبًا ملبدًا بالضباب، تناثرت عن يمينه ويساره بحيرات وعيون صغيرة، لا وجود لضبّاط للحدود أو كشك عسكري أو حتى يافطة.. لا وجود لأية مظاهر حياة، اللهم إلا بعض الغربان التي تنعق في البعيد. قال مليجي لسنّورية:

- افردي الخريطة.

تأملا جغرافية الكرنتينا في الخريطة التي أمدهما بها العماليق، كان هناك طريقان إلى الشمال، أحدهما يحاذي الجبال الغربية الوعرة واسمه طريق البكيفو - خراب آباد، والآخر يحاذي الساحل الشرقي واسمه طريق الساحل الشرقي. فكّرا في أيّهما يمضيان، وبعد نقاش اختارا طريق الساحل الشرقي، ليكون البحر امتدادًا مفتوحًا لهما، حال وجدا نفسيهما مضطرين للهروب من خطر ما.

كانـت القريـة الأولى فـي طريقهما تسـكنها بعض قبائـل الأقزام، لوّحـوا لهمـا من الحقـول التي يفلحونها، وأرسـلوا مع أحـد أطفالهم شـطيرتي مربّـى الكريز، التهـم مليجي حصته فورًا وشـعر بامتنان بالغ للأقزام اللطفاء. بالنسبة له كانت تلك بداية موفّقة في الكرنتينا، وتمنى أن يكون بقية السكّان مسـالمين مثل الأقزام، وعلى المستوى ذاته من الشهامة والجود.

قبل أن يبتعدا أكثر من عشـرين خطوة، شـعر مليجـي بالآلام تقطّع معدته، سـكاكين تمزّق أحشـاءه وجنبيه، اصفرّ وجهـه وتعرّق وتلوى وراح يشخّر.

سـنّورية ارتبكـت لثـوانٍ، غيـر أنها سـرعان مـا تداركـت الموقف ونبشت زوّادتها فورًا، وخرجت منها بعود أخضر يشبه الفجل، حشرته في فم مليجي وأمرته بمضغه وابتلاعه، ثم أخرجت قارورة صغيرة من العسـل الجبلي من مرتفعات بنبلغول. سـكبت ملء الغطاء عسـلًا في فمه، ابتلع مليجي العسـل، شـهق ثم خنفر، ثم تجشّـأ، ثم أفرغ معدته أخيرًا.

من بعيد لمحت سـنّورية الأقزام وهم يتضاحكـون عليهما. لعنهم مليجـي ووصفهـم بالغشّاشـين، أسـندته سـنّورية، وواصلا سـيرهما ملتصقين.

-3-

استدار مليجي وسنّورية حول كل القرى الموجودة على الخريطة، فبعـد نجع الأقزام قابلا قرية بني مسـحور، ثم المتآكلية، وكفر الأكتع، حتـى وصـلا إلى عزبة الضرير التي اتخذت شـكل صفيـن من البيوت المتقابلة، يحدهما شـرقًا البحر، وغربًا المستنقعات والسباخ، ولذلك اضطرا للعبور من وسط العزبة.

عنـد المدخـل الرئيسـي للعزبـة، جلـس بعـض العميـان العجائز يدخّنون الغلاييـن، اقترب مليجي منهم وألقى السـلام، التفتوا جميعًا إلـى مصدر الصوت، نظر مليجـي إلى عيونهم التي يغطيها البياض، أو الزرقة، عيونٌ أخرى كانت مسـمولة، وفي حالة نادرة، كان هناك منهم مَـن لم تكن عنده تلـك الفجوة التي ترقد العيـن بداخلها أصلًا، كانت خدودهم ممتدة إلى عيونهم، أو إلى المكان الذي كان يجب أن تكون فيه عيونهم. قال أحدهم:

- مَن أنت؟

رد مليجي:

- أنا مليجي، إنسان، ومعي زوجتي سنّورية، مسافران شمالًا إلى جزيرة كابوريا، وأسعدنا الحظ بأن نلتقي بناس طيبين مثلكم.

قال الشيخ ذو العينين البيضاوين:

- مَن قال لك إننا طيبون؟

وأضاف الشيخ ذو العينين الزرقاوين:

- ومَن قال لك إننا ناس؟

واختتم الشيخ عديم العينين:

- ومَن قال لك إنك محظوظ بلقائنا؟ إليك هذه!

ومن مكانٍ ما، تناول الشيخ زلطة ورماها إلى ما يظن أنه موقع مليجي، فانهالت من بعدها حصوات الشيوخ العميان، وابل من الحجارة مختلفة الأحجام، أصاب أحدها سنّورية في رأسها، وخلّف جرحًا داميًا.

ركضًا، جرى مليجي وعدت سنّورية وهما يصرخان، بينما كانت الأحجار تسقط بالقرب منهما، أو تصيب ظهريهما.. ظلا يركضان حتى خرجا من نطاق الحجارة.

-4-

كانت سنّورية تنزف من جبينها، ولأن الجرح تُرك مفتوحًا أثناء فرارهما حدث أنه قد تلوّث، وبعد مسافة صغيرة من المشي كان الجرح قد تورّم وأصيبت بالحمى.

حاول مليجي أن يولّف لها تركيبة عشبية، حاول أن يطببها بمحتويات زوّادته من عسل وأعشاب، وجهّز لها كمادتين من المياه التي يحملها، لكن ذلك لم ينفع، فحملها على كتفه، ومشى بها قاصدًا أقرب قرية على الخريطة، وكان اسمها عزبة المحروق. كانت تبعد مسافة ساعة، وعندما وصل إليها مليجي أنزل سنّورية برفق، ثم راح يصرخ:

- يا أهل عزبة المحروق، أغيثوني، يا خلق الله ساعدوني.

من أحد البيوت أطل وجه محروق، ثم تعاقبت الرؤوس المشوّهة تطل من الشبابيك والنوافذ والشرفات، بعد دقائق كان بعض الرجال الشائهين يتحلّقون حول مليجي وسنّورية.

قال واحد بلا شفتين:

- فلنحملها إلى الحكيمة.

تطوّع مليجي لحملها، وقال:

- قودوني إليها.

في آخر العزبة، كان بيت الحكيمة محترقة الوجه، التي أرقدت سنّورية على سرير، له رائحة عفنة في غرفة لا تضيئها سوى شمعتين، وطلبت من الجميع المغادرة إلا مليجي وعمدة العزبة، واسمه عنكروب الشائه. غادرت الحكيمة إلى المستودع لتجهز منقوع الشفاء، بينما بقي مليجي وعنكروب وسنّورية في الغرفة. كان مليجي يبكي على سنّورية، حاول المسخ عنكروب تهدئته، وحتى عندما أخبره مليجي أن سنّورية حامل، قال عنكروب:

- الحكيمة حكيمة، أثق أنها ستداويها.

كانت الحكيمة تجلب عدّتها على دفعات، في البداية حملت سبع قوارير مختلفة، ثم جاءت بالكمادات وصحن الماء، ثم طست من الماء المغلي. بعدها خلطت المكوّنات ونقعتها في صحن الماء حتى ازرق لونها. غمست الحكيمة الكمّادات في المنقوع، ثم وضعت القطعة القماشية المبتلة على جبين سنّورية التي أطلقت آهة ثم تشنّج جسدها.

راحـت الحكيمـة تتلو التعاويذ، ثم تشـنّج جسـدها هـي الأخرى، وعندما عادت إلى طبيعتها سألت مليجي:

- كيف جُرحَت؟

ردَّ مليجي، وهو يبكي:

- العميان في عزبة الضرير رجموها بالحجارة.

قالت الحكيمة:

- والحجارة مسحورة ومسمومة!

ناح مليجي وانهار على ركبتيه، حاول عنكروب تهدئته، ربت كتفه وقال:

- تماسك.

فردّت الساحرة من فورها:

- أو لا تتماسك، كلنا فانون، أعزّيك يا ولدي، ماتت زوجتك.

-5-

انفطر قلب مليجي، ناح وبكى وتمرّغ في الأرض ثم فقد الوعي، حتى عنكروب الشائه بكى، أما الحكيمة فقد غطّت وجه سنّورية بقطعة من القماش، ثم جهزت منقوعًا من الأعشاب المهدّئة، وطلبت من عنكروب أن يسقيه لمليجي المنهار.

بدوره أرسل عنكروب إلى بيته واستدعى زوجاته التسع، وطلب منهن إقامة سرادق لتلقي العزاء في الأباشيرية، التي توفيت في عزبة المحروق، كما طلب منهن أن يبلغن حفّار القبور في أول القرية، ليحفر مكانًا في المقابر لتُدفن فيه سنّورية، وكذلك ليجهّز شاهدًا للقبر ويكتب عليه:

لم تقتلها الجسّاسة ولا الغيلان.. وقتلتها حجارة العميان

هنا ترقد سنّورية آل ببر

أباشيريا ـ الكرنتينا

لم يكن مليجي واعيًا لما يدور حوله، كان يسبح في ملكوت لوحده، ويهذي بين الحين والآخر باسم سنّورية أو نُمير الصغير، لم

يقف لتلقي العزاء، لم يحضر دفن سنّورية، لم يفعل أي شيء سوى البكاء والنوم، شهر كامل من البكاء والنوم، حاولت خلاله الحكيمة أن تداويه من داء الحزن بالتعاويذ والأحجبة والطلاسم، وعاملته كأم تراعي صغيرها المكسور. أمرت له بالكثير من النبيذ ليتسامى ويلتهم الوقت، وحرصت على إبقائه بين المحروقين لأوقات طويلة، لعله يجد بينهم ما يؤنسه، ويطبطب على قلبه المحروق على حبيبته. كانت أيامًا بائسة وكابية وحزينة، ليس فيها شيء جميل بالنسبة لمليجي، سوى هذا الحنان الغامر الذي أغرقته فيه الحكيمة.

في تلك الأيام كان الضباب يحاصر العزبة من كل جانب، ليلًا ونهارًا. واعتاد المحروقيون أن يجتمعوا في الأمسيات على أسطح منازلهم، يشوون الذرة ويشربون مشروباتهم الشعبية ذات الروائح النفّاذة، ويأتنسون بالنميمة وتداول أخبار العاصمة خراب آباد، ويحكون عن زعيمتهم، سيدة الكلام، بوني بياض العينين وقراراتها الأخيرة بتجريد حملة من الجنود المجانين؛ لتأديب الانفصاليين الممسوسين في شمال الكرنتينا.

في واحدة من تلك الأمسيات، نبتت الفكرة في رأس مليجي مثل الورم، سأل عن إمكانية تقديم شكوى إلى سيدة الكلام بوني بياض العينين، ضد العميان الذين قتلوا زوجته. ولاقى اقتراحه استحسان البعض، حتى إن الحكيمة قررت أن تُدلي بشهادتها في صف مليجي،

وكذلك قرر العمدة عنكروب الشائه. وهكذا، بعد شهرين من رحيل ستّورية، كان مليجي يستعد لمغادرة العزبة، على رأس وفد من المحروقيين، متوجهًا إلى خراب آباد، ليقتص من قتلة زوجته.

-6-

خراب آباد كانت مدينة كبيرة، أكبر من توقّعات مليجي، لم يتصور أن في الكرنتينا مدنًا بالمعنى المتعارف عليه، شوارع وبنايات عالية وإشارات مرور ضوئية وأخرى صوتية للعميان. تعج خراب آباد بمطاعم اللحوم المتعفّنة، ومحلات عصائر القيح والعرق والصديد، ومشاتل لبيع المزروعات السامّة وغير السامة. كما انتشرت في العاصمة محلات لفك السحر، وتجهيز التعويذات والطلاسم. وكانت هناك جامعة كبيرة متخصصة في الشعوذة وتركيب الأعمال والتنجيم وقراءة الطالع، كما انتشرت عيادات لترميم الأطراف المبتورة، وأخرى لتجميل الناجين من الحرق والشائهين، ومحال لبيع الأجهزة الطبية التعويضية والتكميلية، وعطّارون يبيعون الأعشاب والسوائل الملونة والحبوب المباركة.

انبهر مليجي بالمدينة الغارقة في الضباب، وشعر بالندم لأنه لم يأخذ طريق البكيفو – خراب آباد منذ البداية، بدلًا من طريق الساحل الشرقي؛ إذ كان ذلك سيضمن له الوصول شمالًا في وقت أسرع، وكان سيجنّبه أيضًا خطر المرور على عزبة الضرير.

فـي المدينـة، توجّه الوفد إلـى مبنى وزارة الإنصـاف، وهناك تقدّم مليجـي بشـكوى مسـتعجلة موجّهـة إلى سـيدة الـكلام بونـي بياض العينين شـخصيًّا، وجمع على عريضته عشـرات التوقيعات من أهالي عزبة المحروق، وتسرّبت القضية بشكل ما إلى وسائل الإعلام، فباتت حديـث المدينة، وكانت موضـوع حلقة تلفزيونية بعنوان «الأباشـيرية والعميان»، وحققت تلك الحلقة معدلات مشاهدة خرافية.

بهذه الروح المرتفعة، عاد مليجي مع الوفد إلى العزبة، منتظرًا حكم قاضـي وزارة الإنصاف، وهـذا الأخير قام برفع الدعوى بعد أسـبوع، إلى الديوان الزعيمي، حيث عُرِضت الشكوى على السيدة بوني بياض العينين، التي أرسلت إلى مليجي وشهوده لتستجوبهم بنفسها.

كانت سـيدة الـكلام عجوزًا شـمطاء تخطّت المائة عام، لها شـعر أبيـض هائـش ينتشـر علـى كتفيهـا، ويتماهى مـع عينيهـا البيضاوين، وكانـت تلك المسـاحات البيضاء في شـعرها وعينيها وحتى بشـرتها، تمنحها هالة من المهابة والجلال، هكذا قال مليجي لنفسه، عندما مثل بين يديها للتحقيق في شكواه.

قالت بوني بياض العينين:

- احكِ يا مليجي وتحدّث حتى أراك.

فحكـى مليجـي قصة مروره علـى عزبة الضرير، بدايـة من وصوله إلى هناك، ومعه زوجته، والحوار الذي دار بينه وبين الشيوخ العميان،

وانتهاءً بعاصفة الحجارة التي أمطروهما بها. كان مليجي يحكي، بينما يـدوّن كاتب أعمـى كل كلامه في مضبطة التحقيـق. ثم طلب حاجب مجـذوم، وبلا أنف، من مليجي أن يبصم ويوقّع تحت أقواله، وأخيرًا، طلبت منه بوني بياض العينين أن يعود مع الحكيمة والعمدة عنكروب الشـائه إلى عزبة المحروقين، وينتظر الحكم الذي سـيصدر عبر لجنة قضاة خلال أيام.

عـاش مليجـي تلك الأيـام، وهو يقـرض أظافره، التهبـت أصابعه وتورّمت عيناه من قلة النوم، كان يريد أن يكرم ذكرى رفيقة دربه، وأن يسافر إلى كابوريا، تاركًا لها قبرًا وسط المحروقيين الطيبين، وانتصارًا رمزيًا، بالقصاص من قاتليها العميان.. كان يريد ذلك بشدّة.

-7-

صبيحة اليوم الموعود، توجّه مليجي والحكيمة والعمدة عنكروب الشائه بعد الفجر مباشرة إلى خراب آباد قاصدين مبنى وزارة الإنصاف، وهناك رأى مليجي خصومه العميان يتخبطون في طريقهم إلى القاعة. فكّر أن يهجم عليهم ويقتل أحدهم، إلا أن عنكروب والحكيمة منعاه.

بكى مليجي وهو يستحضر سنّورية الحلوة، سنّورية الشجاعة والمُحبّة. وضعها في قلبه وهو يدخل إلى القاعة، همس لها: «هذه الحرب من أجلكِ يا حبيبتي»، ثم أخذ مقعده أمام المنصة على يمين الحكيمة.

كان العميان على الجانب الآخر صاخبين، يدبدبون بعصيّهم في الأرض، ويتغنّى أصحاب الصوت الرخيم منهم - وهم كُثُر - بأغانٍ جماعية بذيئة، تركّز في مجملها على الأعضاء التناسلية لأمهات خصومهم، وتعد بإقامة حفلات نكاح جماعي لأسرى العدو.

مال عنكروب على مليجي وقال:

- هذا تراثهم، السفالة والصوت العالي. يا صديقي، لا أريد أن أزعجك، لكني متضايق جدًّا، وقلبي مقبوض، أشعر أن الملكة العمياء بياض العينين ستحكم لأبناء عشيرتها من العميان.

دخلت هيئة القضاة إلى المنصة، كانوا سبعة قضاة، قاضٍ عن كل فصيلة من فصائل الكرنتينيين، يتوسطهم أعمى، تناول ورقة بيضاء كُتِب عليها بنقوش بارزة، بدأ القاضي الأعمى يتحسس الورقة ويقرأ:

- بعد تداول القضية المرفوعة من طرف الإنسان مليجي الصغير، ضد عميان عزبة الضرير: ضرر الكعب، وريعو الشتّام، والعجوز الحاج، وبصير ضَبَش. وبعد الاستماع للشهود من الطرفين وفحص كل الأدلة والقرائن، وجدت هيئة القضاء والإنصاف أن العميان مذنبين، وأن وفاة سنّورية آل ببر هي مسئولية كاملة تقع على عاتق الأربعة المذكورين، وبناءً عليه، تحكم الهيئة على كل من: ضرر الكعب، وريعو الشتّام، والعجوز الحاج، وبصير ضَبَـ..

لم يُكمل القاضي الأعمى كلامه، لأن سيدة الكلام اقتحمت قاعة المحكمة في موكب من جنودها المجانين، وقاطعت الهيئة عندما قالت: توقّف يا رأس الكلب.. توقّف يا بن الخطاة!

قطع القاضي الأعمى قراءته فورًا، بينما سجد القاضيان المجذوم والمجنون، وقالا:

- الانصياع والاستسلام لسيدة الكلام.

كاد مليجي يُصاب بجلطة، وعندما التفت لم يجد عنكروب الذي أخذ ذيله بين أسنانه وهرب. فيما بقيت الحكيمة صامتة كأنها كرسي من كراسي القاعة.

قالت سيدة الكلام بأعلى صوتها:

- حكمت المحكمة وفقًا للدستور الكرنتيني والسلطة المخوّلة إليّ، ببراءة المتهمين الأربعة، كما حكمت بأن يغادر هذا الإنسان ابن الخاطية أرض الكرنتينا، خلال يومين على الأكثر.

تهلل العميان وارتفعت صرخاتهم، راحوا يهتفون باسم بوني بياض العينين، ثم أخذوا يغنون أناشيدهم التراثية البذيئة حول الانتصار على العدو ابن الزانية والقذف في عينيه إلى أن يفقد بصره.

مالت الحكيمة على مليجي وهمست:

- كنت أعمل حساب مثل هذه الأمور.

ثم مالت إلى الأمام وسحبت من تحت مقعدها زوّادة صغيرة، وضعتها في حِجر مليجي وقالت:

- بعد أن تخرج من القاعة افتح هذه البقجة، ستجد فيها خريطة، امشِ حتى تصل إلى قرية الحواة، وهناك، عند ضاحيتها الجنوبية،

ستجد كوخًا وحيدًا ينتصب في العراء، يسكنه صديق لي اسمه سحّار الحاوي..

قطعت الحكيمة كلامها ومدت يدها إلى رأسها، نتفت شعرة بيضاء طويلة ومتهالكة، وضعتها في يد مليجي وأكلمت:

- خذ، أعطِهِ هذه الشعرة، وسيقوم هو بالمطلوب.

كان مليجي مأخوذًا بالتغيّرات المفاجئة، ومذهولًا من ظلم سيدة الكلام وانحيازها الغاشم لعشيرتها. وفي الوقت نفسه أربكته حكاية سحّار الحاوي والشعرة البيضاء.

خلال ثلاثين ثانية، كان مليجي خارج القاعة، يحمل زوّادة مجهولة المحتويات، ويركض نحو الشمال.

بعد أن خرج من حدود خراب آباد فتح الخريطة، واستدل بها حتى وصل إلى قرية الحواة، وتعرّف على الكوخ المعزول عن بقية القرية، حيث استضافه سحّار الحاوي، بعد أن ترجم شفرة الحكيمة وشعرتها.

كان سحّار يمتلك بُراقَيْن، أحدهما ذكر والآخر أنثى، وهي أحصنة صغيرة مجنّحة، قام واحد منهما، بحمل مليجي بسرعة قبل أن يستوعب الأحداث، وطار به قاصدًا حدود بلاد يأجوج ومأجوج.

تحت أرض يأجوج ومأجوج

-1-

كان مليجي يشهق وهو في الهواء، ممتطيًا صهوة البُراق، قابضًا بكامل قوته على اللجام، يحافظ بكل تركيز على توازنه. وكان يفكّر في المآسي التي تعرّض لها، والظلم الذي وقع عليه في إمارة الكرنتينا وخسارته التي لا تُعوّض برحيل سنّورية وطفلهما في بطنها. اختلطت عليه الأفكار والأحزان، ولم يعد يستوعب الانحرافات الحادّة، التي تعرّض لها في أيامه الأخيرة. كان مأخوذًا أيضًا بمنظر الكرنتينا من الأعلى، حيث يحلّق البُراق فوقها، مخترقًا الجو بعد الجو، وقاطعًا الدَّو تلو الدَّو.

تذكّر مليجي أحجية نسناس الشق عندما قابله في صحراء القِفْر، عن الشيء الأسرع من البراق رغم أنه بلا جناح أو ساق، وتذكّر أيضًا سنّورية التي كانت ستسعد لو امتطت معه صهوة هذا المخلوق. فكّر مليجي أيضًا في أن يرسم مشهدًا سماويًّا لأرض الكرنتينا، كما رآها من فوق صهوة البُراق، ليضيفها إلى الصور في ثبْت العجائب العلمي الذي ينتوي كتابته.

بعد عدة ساعات من الطيران، بدأ ذلك الكيان الداكن المهول يلوح أمامه، كان كبيرًا كأنه غابة كاملة، في هذه اللحظة تمنّى مليجي لو كان بمقدور البُراق أن يتكلم، ليسأله عن هذا الشيء الكبير، خمّن مليجي أنها كتلة معدنية مهولة، وكان كلما اقترب اتضحت الرؤية، فأدرك في النهاية أنها بالفعل كمية هائلة من الحديد تميل ناحية بلاد يأجوج ومأجوج المنخفضة، فتبدو كأنها غطاء بلاعة كبير. بدأ البُراق في تخفيف سرعته، ومال إلى الأسفل، ثم أخذ يقترب من الأرض حتى هبط عليها، توقّف أخيرًا. صهل البُراق ولمّ جناحيه، أدار عنقه إلى جراب صغير معلق في نحره، وسحب بأسنانه مظروفًا صغيرًا، أعطاه لمليجي ثم طار عائدًا دون أن يُسلّم أو يستريح.

فتح مليجي المظروف وقرأ:

«**ولدي مليجي..**

سلامٌ من الطبيعة ومن ما وراء الطبيعة.

حسب المخطط يُفترض أنك الآن عند الحدود الجنوبية ليأجوج ومأجوج.

لا تزال بعض الساعات متاحة من مهلة سيدة الكلام إن كنت تريد أن تستريح.

أنا لست بجانبك الآن لأرعاك، ولا أمتلك حضورًا سحريًا قويًّا يغطي المسافة الكبيرة بيننا.

أنت الآن مقبل على أصعب أقوام اللابوريا وأكثرهم ضراوةً. فخذ حذرك، واشحذ أسلحتك، وتعلّم فنون الاختباء والتخفّي.

هنـاك كائن حي في هذه البقجة يا ولدي، أرجو أن تكون قد تنبّهت له، حيوان سـمندر صغير، أطعمه واسـقه وعامله كأخ، وسـيكون لك خير معين..

ترك مليجي الرسـالة وفتح الزوّادة ونبشها حتى أخرج علبة خشبية منقوشًـا عليها تنينًا ينفخ النار، وبداخلها السـمندر الصغير. فتح العلبة وأمسـك بالحيـوان الأملـس الأسـود ذي الخطـوط الصفراء. ابتسـم السـمندر لمليجي وقرقر وهز لسـانه الصغير. رد له مليجي الابتسـامة وقال:

- أهلًا بك في هذه الرحلة يا صديقي.

ابتسـم السـمندر ثانية. وضعه مليجي في العلبة الخشـبية وعاد إلى قراءة الرسالة:

«ستجد فـي الـزوّادة أدوات قـد تحتاجهـا، ومـع كلٍّ منها شـرحًا موجزًا.

حـال احتجـت إلـيَّ، كُل هذه الرسـالة، ضعها في فمـك وامضغها وابلعها، وسأحضر لك فورًا أو يحضر أحد أصحابي.

ستستدعيني مرة واحدة فقط.. فاحرص عليها.

أمك المحبة الحكيمة»

طوى مليجي الرسالة مرّات كثيرة حتى استحالت مربّعًا متناهي الصغر، ربطها بشعيرات لحيته التي استطالت وأخفاها وسط الشعر الغزير بعناية. تفحّص الحدود الموازية للسور الحديدي الهائل؛ ليتأكّد أن لا أحد هناك، ثم جلس وفتح الزوّادة، وبدأ يفرز كل محتوياتها.

-2-

باستخدام حبل طويل وأنشوطة، تسلّق مليجي السور الحديدي المائل، والمصمم ليكون سهل التسلّق من ناحية الكرنتينا، صعب التسلّق من ناحية يأجوج ومأجوج ليصعب خروجهم من بلدهم، فلا يكون لهم منفذ إلا الساحل البحري. وقد هاله المشهد الأول الذي رآه على الجهة الأخرى. كانت بلاد يأجوج ومأجوج عبارة عن أرض صخرية شديدة الانخفاض، تتخللها شبكات من الكهوف العمودية والأفقية، والكثير من المغارات والثقوب الأرضية والصدوع والأخاديد الصغيرة والكبيرة، التي تتصاعد من بعضها أبخرة كثيفة ذات روائح معدنية.

نظر مليجي إلى المسافة السحيقة شمال السور الحديدي، وفكّر ألف مرة في التراجع، حتى إنه أمسك برسالة الحكيمة، منتويًا استدعاءها لتنقذه من هذه الورطة، إلا أنه تمالك نفسه، وقد تذكّر سنّورية وحلمهما المشترك في الوصول إلى جزيرة كابوريا ليؤسسا هناك حياة جديدة وآمنة، فقرر أن يمضي شمالًا مهما كان الثمن، حتى ولو كلّفه ذلك أن يواجه ما هو أسوأ من الموت. عقد مليجي العزم،

فشبك الأنشوطة في بروز حديدي في السور، ثم ربط نفسه في الطرف الآخر، وضع الزوّادة على ظهره، ووضع السكّين الفضية بالعرض تحت أسنانه، وبدأ في الهبوط متشبثًا بالحبل.

في تلك اللحظة التي كان مليجي يتدلى فيها من طرف السور الحديدي الكبير، طرقت دماغه ثلاث خواطر دفعة واحدة: ما الذي ينتظره هناك في الأسفل؟ وماذا لو سقط الحبل أو انقطع؟ ولماذا يجد في نفسه رغبة دائمة ليرسم الأرض من فوق، كما فعل مع غابة بنبلحوت من فوق كتفي بَق بَق، وشمال الكرنتينا من فوق صهوة البُراق؟

شغل نفسه بأفكار شبيهة بينما ينحدر من السور الحديدي المائل حتى تجاوز منتصفه، قال لنفسه: «هانت»، ثم واصل الهبوط. يتذكّر سنّورية. يتذكّرها؟ أبدًا. مليجي لم ينسها، حتى وهو مقبل على دخول تلك البلاد التي حذّره منها الجميع، وعندما كان نزيلًا في مخيّم اللاجئين في مملكة الجسّاسة سمع عنها حكايات رهيبة.

ورغم ذلك، فسنّورية حاضرة فيه، هي الوقود الذي يدفعه لمواصلة المشوار.

وصل مليجي إلى ارتفاع مترين عن سطح الأرض فقفز، ومن فوره قام ثم ركض واتخذ من صخرة كبيرة ساترًا له، شرب بعض الماء ثم استخرج السمندر من علبته الخشبية، تبادلا الابتسام مثل المرة الأولى ثم أمره مليجي:

- وراء هذه الصخرة بمسافة مائة ذراع هناك كهف عمودي يفوح بالأبخرة والدخان، اذهب واستطلع الأمر.

بفضل البطاقة التعريفية التي كتبتها الحكيمة عن السمندر، عرف مليجي فوائد ذلك المخلوق السحري، فعدا عن كونه جندي استطلاع ممتازًا، يمتلك السمندر ميزة تخصه وحده عن بقية الخلق، لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يمشي في النار فلا يتأذى، وهذه الخاصيّة موروثة عن أجداده التنانين.

بعد دقائق عاد السمندر مبتسمًا وهز لسانه وقرقر. تساءل مليجي:

- هل هذا يعني أن الطريق آمن ودرجة الحرارة تناسبني؟

ابتسم السمندر وهز لسانه، فاطمأن مليجي، لكنه كان يشعر بأن هناك طريقة أفضل للتواصل مع السمندر، فكّر قليلًا وهو قابع خلف صخرته ثم همس للسمندر:

- إذا أردت أن تقول لي إن لا أحد هناك، فتعالَ هنا إلى يدي والحس هذا الجزء.

نفّذ السمندر التعليمات بدقّة، فقال مليجي:

- أحسنت. وإذا أردت أن تقول إن هناك واحدًا، عُض هنا خفيفًا، أما إذا أردت أن تقول.....

وراح مليجي يعلّم شفرته للسمندر، وأقام معه تجربتين ليطمئن إلى أن التواصل بينهما صار قائمًا على اللمس.. يضع السمندر في كفه فيفهم فورًا ماذا يقول.

أحكم مليجي ربط الزوّادة على ظهره، وتزنّر بحزام علّق فيه سكينه، وطلب من السمندر أن يدخل في تلافيف ثيابه، ثم قام وتوجّه إلى فوّهة الكهف الأفقي يعاينها قبل النزول فيها.

كانت الفوّهة بعرض متر ونصف المتر، وبلا قاع، لا يعرف مليجي إلى أي مسافة يبقى المتر ونصف المتر، مترًا ونصف متر، وأين يتسع قُطر الأسطوانة الصخرية الغائرة في الأرض أو يضيق. للمرة الأخيرة، فرد الخريطة وعاين الطرق المؤدية إلى الشمال، كلها فروع متشابكة لطرق، تقع كلها تحت طبقات أفقية طويلة من الصخور والفجوات بينها. كان عليه أن يسلك أكثر الطرق بعدًا عن مركز بلاد يأجوج ومأجوج.

علق البوصلة في رقبته، طوى الخريطة وأعادها إلى مكانها، ربط الحبل في شص معدني، شبكه بصخور صلبة وحادّة، ثم تدلّى في الفوّهة.

كان الظلام حالكًا في الداخل، واضطر مليجي إلى تعليق الحجر المنير الذي أعطاه إياه سَبَلوه بن سعدان، فبث الحجر دائرة من النور

الأحمر بلون العقيق، سمحت لمليجي أن يرى حوله حتى مسافة عشرة أذرع.

دقائق من النزول، كان مليجي ينعزل فيها عن أصوات نعيق الغربان وصفير الرياح أعلى الفوّهة، ويلتحم فيها مع صوت الصمت والعدم في الكهف العمودي.. ظل مليجي يهبط حتى ظن أن عليه أن يطلع لأن تلك الأسطوانة بلا نهاية، لكنه غيّر رأيه بعد دقائق إضافية من النزول، عندما بدأت أذناه تلتقطان صوتًا شاحبًا؛ مما أعطاه المزيد من الأمل، فراح يواصل هبوطه إلى أن بدأت عيناه تلمحان نورًا خافتًا، يتزايد مع كل ذراع ينزله.

توقّف مليجي عن النزول، كانت عضلات يديه تكاد تنفجر من المجهود، لكنه ضغط على نفسه إلى الحد الأقصى. طلب من السمندر أن يخرج من ثيابه، وأمره بأن يقصد النفق الأفقي الذي تخرج منه الأصوات البعيدة والإضاءة الخافتة ليستطلع الأمر. أصدر السمندر قرقرة، ثم قفز برشاقة من فوق كتف مليجي إلى جدار الكهف، ومضى نازلًا إلى النفق الأفقي.

تأمل مليجي السمندر وهو يهبط، حسده على تلك المرونة والخفّة، وعلى قدرته على الالتصاق بالجدران. تمنّى لو يجد النفق الأفقي خاليًا فيدخله ليستريح قليلًا، قبل أن يبدأ مسيرته إلى الشمال عبر أراضي يأجوج ومأجوج التحتية. بعد قليل عاد السمندر ولحس

وجـه مليجي، ثـم أصدر عدة رعشـات وتقلّبات وقرقـرات، فهم منها مليجـي أن النفـق آمن، إلا أن هنـاك أصواتًا قادمة مـن البعيد في عمق المغارة الأفقية.

هبط مليجي إلى النفق، أعاد تربيط الزوّادة والتأكد من مكان سكينه المنقوشـة، أخفـى الحجر المنير مكتفيًـا بالضوء الخافـت القادم من البعيد في النفق. أمر السمندر بالرجوع إلى ثيابه ثم تقدم شمالًا.

لـم يكمل مسـافة كبيـرة في المغـارة الأفقيـة، حتى انجلى سـقفها تمامًا، وألفى نفسـه أمام مدينة كبيـرة في باطن الجبل الصخري، مدينة هائلـة لا حـدود لمداها وأفقها، كان يطل عليها مـن ارتفاع، أخرج من الزوّادة منظـار العين الواحدة، وراح يفحص المدينة، فتمكّن من رؤية الشـوارع والمحال والعربات، التي تجرها كائنات غريبة لم يتمكّن من التعـرّف عليها عن بُعـد.. كان اليأجوجيـون والمأجوجيون منخرطين فـي إيقاعهـم اليومي. رأى سـائقين وعسسًـا وعتّالين وأطفـالًا صغارًا يلعبون في الشارع.

وجد مليجي أن شعب يأجوج ومأجوج يشبه الإنسان، إلا أنه أقصر قليلًا وأعرض قليلًا وأكثر شـعرًا، لم تكن لهم أنياب كالأباشير، لكن كان فيهم تشابه مع القرود في كبر أحجام الأنوف وكذلك الشعر الطويل الغزيـر في الرأس والذقن والعنق والصـدر، مع عضلات ذراعين قوية

وبـارزة، ووجد أيضًا عبر منظاره أنهم يعملون حدّادين ونافخي زجاج وعمّال مناجم وحفّارين وبنّائين.

مـن موقعه في الأعلى، قرر مليجي أن يمكث حتى الليل، ويحاول عبور المدينة بعد أن يحل الظلام، وتُطفأ المشـاعل وينام اليأجوجيون والمأجوجيـون. عبر الاسـتدارة فوق الجبال التحـت أرضية المحيطة بالمدينة.

-3-

مسـاءً، بعد أن هدأت الحركة في المدينة، استعد مليجي ليتحرك، ورسـم مسارًا على الخريطة يشبه نصف دائرة، تبدأ حيث موقعه على جبـل النفـق الأفقي، ليمضـي بعدها قاصدًا سلسـلة الجبـال المحيطة بالحاضـرة اليأجوجية والمأجوجية الممتـدة حتى آخر أرضهم. طلب من السـمندر أن يسبقه ليستطلع الأمور، وأن يحرص على أن لا يراه أحـد؛ لأن هـؤلاء القوم يتغذون علـى الزواحف من أبنـاء جلدته بكل أنواعها، فيضعونها في الأسياخ ثم يشوونها ويأكلونها. ابتلع السمندر لعابه، لكنه لم يتراجع أو ينكص، وانطلق في مهمته الاستطلاعية، وعاد بعد بعض الوقت، أمسكه مليجي بيده، وراح السمندر يتلوى ويصدر قرقرات ويلحس ويعض، ففهم مليجي أن الجبال مقفرة وهادئة.

انطلـق مليجـي تحـت سـتار الليـل، فـي يمينـه يمسـك بالسـكين المنقوشة، وفي يساره يقبض على الحجر المنير ليهتدي به في الطريق، وفي الوقت نفسه يحجب نوره بقبضته حتى لا يُفتضح أمره. قطع مسافة معقولة، زوّادته على ظهره، ومعدّاته في يده، وسـمندره الوفي ينام في ثنايـا ثيابه. كان يحاول أن يكسـب الوقت بالهرولـة الصامتة، وفكّر أن

الظلام هو فرصته المثلى ليقطع هذه البلاد كلها، يتخفّى نهارًا ويختبئ في تلافيف الجبل، وفي الليل يمضي في طريقه ركضًا.

أمام وادٍ بين جبلين تريّث مليجي، كانت المسافة في قاع الوادي تقترب من مستوى سطح أرض المدينة، ولم يكن ذلك أمرًا جيدًا من وجهة نظره، فلا أحد يعرف ما الذي سيجري معه حال أمسك به اليأجوجيون والمأجوجيون. مرة أخرى، طلب مليجي من السمندر أن يقوم بمهمة استطلاعية، لكنه عاد مذعورًا هذه المرة، وعندما أمسك به مليجي بكلتا يديه ليفهم منه ما صار، لم تصدر عنه قرقرات ولا لحسات ناعمة، بل خربشات وتلوٍّ متواصل، فعرف مليجي أن بعض الأهالي رأوا السمندر وأنهم قادمون في أعقابه.

دسّ مليجي السمندر في ثيابه وانطلق يعدو كالمجنون، الزوّادة تتمايل على ظهره وصخور الجبل الحادة تكاد تمزّق حذاءه وقدميه. كان يسمع أصواتهم تأتي من خلفه لكنه لم يكن يراهم، كان مذعورًا، وفكّر في التخلص من زوّادته لإلهائهم بها وتخفيف وزنه، ثم فكّر في أن يبتلع الرسالة ويستدعي الحكيمة ويطلب منها أن تخفيه أو تحوّله إلى صخرة لكيلا يمسكوا به، وفكّر أن..

لم تتح لمليجي الفرصة في التفكير بحل ثالث ينقذ به نفسه؛ لأن يدًا قوية انبثقت من بين الصخور وسحبته إلى فلق في باطن الأرض. فجأة وجد مليجي نفسه محشورًا في مساحة ضيّقة، ويواجه واحدًا من

اليأجوجيين المأجوجيين، وقد كتم هذا الأخير فم مليجي وأنفه بيد، بينما باليد الأخرى أمسك بكومة من الأعشاب الجافة وسد بها فتحة الفلق الصخري.

من باطن الأرض، سمع مليجي وقع أقدام القوم وهم يبحثون عنه، شعر بالنبض في أذنيه والضغط يكاد يمزّق عروقه، وحتى عندما ابتعدوا قليلًا، ظل خائفًا من الرجل صاحب الملامح الضخمة والعينين الصغيرتين، الذي يشاركه الانكفاء في الشق الصخري.

على وضعيهما راقدين على بطنيهما، قال الرجل الذي أنقذه:

- ابتعدوا.

رد مليجي:

- لقد بلّلت ثيابي.

ابتسم المأجوجي كاشفًا عن أسنان حائلة اللون، عريضة، بارزة، وعقّب:

- سنبقى على هذا الوضع لبعض الوقت؛ حتى نتأكد تمامًا أنهم ابتعدوا.

سأله مليجي:

- مَن أنت؟ ولماذا أنقذتني؟

فأجاب:

- اسمي تِمْبِشْهاك، من مأجوج، لا يهم أي شيء عني غير ذلك. وأنقذتك لكي أحظى بمقابل جيد نظير خدمتي.

أراد مليجي أن يضحك، مرة بسبب الاسم الذي لم يستطع أن يحفظه، ومرة بسبب أطماع المخلوق الساكن في فلق الأرض. لكنه خشي أن يسمع القوم صوته فيضبطوهما. قال للمأجوجي:

- لا شيء معي لتأخذه، كلها معدات كشّافة وسفر وتخييم، لا أموال ولا جواهر ولا مقتنيات نفيسة.

رد المأجوجي:

- أنا واحد أعيش حياتي سارحًا في ملكوت الغار، هائمًا في تجاويف الأرض، ورزقي على الجبل، أبيع الخردة التي ألقاها في الطريق وآخذ بالمقابل بعض الطعام، والآن وبعد أن أنقذتك عليك أن تعطيني مقابل خدماتي، وإلا سأخرج من هذا الفلق وأصرخ معلنًا أنني وجدت إنسانًا متسللًا إلى البلاد.

فهم مليجي أنه وقع ضحية لهذا المستغل، سأله بعصبية:

- وماذا تريد مني يا مأجوجي؟

أجاب:

- أولًا اسمي تِمْبِشْهاك، وثانيًا سأفتّشك وأفتّش زوّادتك وأنتقي ما يتناسب وأسعار خدماتي.

في فترة انكفائهما داخل الفلق، حكى تمبشهاك لمليجي عن أصول قومه يأجوج ومأجوج، أقدم السكّان الأصليين في أرض اللابوريا، وكيف تفرّعت منهم الأجناس الأوّلية الأخرى، والتي انتشرت في البلاد وتزاوجت وتطوّرت وتناسلت حتى صار كل منهم سلالة مستقلة، ومنهم الإنسان. قال تِمْبِشْهاك أيضًا إن اقتصاد يأجوج ومأجوج قائم على تصدير مستخرجات المناجم من معادن وعناصر تحت أرضيه نادرة، وإنهم لا يعرفون أي نوع من العلاقات الخارجية سوى التجارة والحرب، ويفضلون الانعزال عن بقية الدول؛ للحفاظ على خصوصيتهم الثقافية المتمثلة في كونهم الشعب الوحيد، الذي لا يفضّل أن يعيش تحت السماء، ويستوطن الكهوف والشقوق والصدوع في باطن الأرض، يتخذ منها بيوتًا طبيعية.

بعد أن خرجا من الفلق واستترا خلف بعض الصخور الكبيرة، راح تِمْبِشْهاك ينبش الزوّادة، فألقى بالخرائط جانبًا، وشمشم في الأعشاب، ثم أخذ لحسة من العسل وانبهر بطعمه، لكنه تنازل عنه عندما رأى الحجر المنير، وفكّر أنه يمثل ثروة في مدينة، لا تصل إليها أنوار الشمس وتعيش على المشاعل الزيتية.

تردد قليلًا بعد أن أخرج السمندر من جيب في جنب مليجي، وأخرج من الجانب الآخر السكّين المنقوشة، شعر أنه أمام ثروة هائلة، لكنه في النهاية حصر خياراته بين السمندر والحجر المُنير.

وختامًا استقر على الحجر، وخمّن أنه وأخيرًا سيجني مبلغًا جيدًا، بعد سنوات من التسوّل وبيع الخردة وغربلة أكوام القمامة، في جبال يأجوج ومأجوج وضواحيها.

شعر مليجي بالقهر لفقدان الحجر المنير، ليس فقط لأنه كان سيحتاجه في بقية الطريق، ولكن أيضًا لأن الطريقة التي سُلِب بها مهينة. شعر أنه مفلس يعرض مقتنياته في المزاد بعد أن صار مدينًا. لكنه في النهاية ابتلع الإهانة، واشترى عمره بالحجر المنير الغالي.

-4-

إلى الشمال، واصل مليجي السعي متخفيًا بين الصخور وفي أغوار الجبل التحتي. من بعيد يراقب الطريق الممهد المليء بالمحال والمطاعم، لكنه يخشى الظهور لليأجوجيين والمأجوجيين. فكّر أنه اختار السبيل الأسلم رغم وعورته، وأن الأمر بهذه الطريقة لن يستغرق سوى أيام قليلة يصل فيها إلى حافة مدن جوف الأرض، ويخرج ليواجه البحر، حيث مرفأ المرفأ، الذي سينطلق منه مباشرة إلى جزيرة كابوريا.

فكّر مليجي أيضًا في سنّورية، الموشومة في مخّه، حلمه المهدر ووجعه الأبدي، قال لنفسه: «كيف لا يموت الناس كمدًا بعد فقد أحبتهم؟ نحن جنس جاحد».

في تهاويم النهار والليل انقضى الوقت بمليجي، يمشي في أعلى نقطة داخل جوف الأرض، يرقب شبكة الكهوف والأنفاق من تحته، فيعاوده السؤال عن هوس الأماكن المرتفعة، ورغبته الدائمة في رسمها.. ومن بين كل تلك التهويمات، تلقّى مليجي صفعة قوية

ومفاجئـة، أسـقطته أرضًـا، لم يعرف من أيـن أتته، لكنـه عندما اعتدل على الأرض، نظر حوله جيدًا، وجد نفسـه وسـط كميـن أمني، مكوّن من ستة أفراد، كان بينهم تمبشهاك.

قبـل أن يقوم كانوا قد انهالـوا عليه ركلًا ولكمًـا، طحنوا عظامه، ثم جرجروه من شعره ويديه نزولًا من الجبل وسحبوه إلى المخفر، وهناك حُرِّر ضده بلاغ يتهمه بالتسلل عبر البلاد، والإخلال بأمنها عبر محاولته تهريب كائنات غير مرحّب بها في يأجوج ومأجوج مثل «السـمندل» - كما كتبها المأمور في أوراقه - عدا عن حمله لسلاح أبيض.

رُبِـط مليجـي بالحبال السـميكة المفتولـة، وأُلقي به بعـد ذلك في زنزانـة مظلمة مع عدّة سـجناء آخرين. تعثر في جسـد أحدهم، ارتطم رأسه بالجدار، وسقط مغشيًّا عليه.

وضِعـت الكمادات لمليجـي المضعضع، واعتنى به السـجناء، لم يفعلـوا ذلك بوازع أخلاقي، الحقيقة أن السـجناء حاولوا إنقاذ مليجي لكيـلا يمـوت وتتعفـن جثتـه بجوارهم فـي الزنزانـة الحقيرة نفسـها، فتقضي عليهم الأوبئة. ظل مليجي لسـتة أيام لا يعي أي شـيء، عظامه مهشّـمة، ومفاصله مفكوكة، يسـتيقظ كل عدة ساعات فيسقونه جرعة ما ثم يضعون بعض الأعشاب في فمه، يمضغها مليجي وينام.

وفي اليوم السـابع، زالت الحمى، وتحسّـن مليجي أخيرًا، وتمكّن مـن فتح عينيه ومعاينة بقية المسـجونين، وكانت فرحته عظيمة، عندما

وجد أن الحرصود الذي اعتنى به طوال أيام مرضه، هو غندور ابن هنكال نفسه.

قال مليجي لنفسه: «الدنيا ضيّقة، والوجوه تتلاقى»، أما غندور فقد سعد جدًّا بوجود الأنسون مليجي زميلًا له في السجن، بعد أن كان زميلًا له في الحرب. كان لكل منهما رصيد عند الآخر، هذا ما ساعدهما على التفاهم سريعًا، فأحكما قبضتيهما على عنابر الزنازين وصارا زعيمين لكل مَن في الحبس.

عندما ترك مليجي بلاد الحراصيد هربًا إلى صحراء القفْر، كانت المعركة محتدمة ودامية في عزبة غندور بن هنكال بين الظهوريين والفراغيين، وكان المدد قد وصل للفراغيين بما يوحي بأنهم سيسحقون الظهوريين، لكن سبحان من ثبّت فلاحي عزبة ابن هنكال أمام جيوش الفراغيين، إذ يبدو أن الإيمان دبّ في قلوبهم، فسطّروا ملحمة خرافية، وصدّوا الفراغيين حتى الصباح، عندما وصل المدد الظهوري من ألف فارس، تمكّنوا من تغيير سير القتال، وهجموا على الفراغيين من خلفهم ففتكوا بهم.. وعلى عكس كل توقعات مليجي، سجّل التاريخ الحراصيدي انتصارًا مدويًا للظهوريين بقيادة غندور ابن هنكال، وقُتِل في المعركة هوفل بن ماضا والكثير من زملائه الجنرالات، وأُسر الكثير من الفراغيين، ودانت البلاد كلها لغندور.

ست سنوات حرصودية قضاها غندور في سدّة الحكم، بعد إقصاء خصومه، ست سنوات والأنسون المرجو والمأمول لا يظهر، والاقتصاد المتأذي من الحرب الأهلية آخذ في الانحدار والتراجع، والمحصول القومي من الباذنجان والقرنبيط يتناقص. كان ذلك يحدث، بينما غندور بن هنكال غارق في نشوة انتصاره، لا تذهب السكرة رغم انقضاء السنوات الحرصودية، ورغم التذمّرات الشعبية الآخذة في التصاعد من كلا الفريقين: الظهوريين والفراغيين.

ذات يوم استيقظ الرئيس غندور بن هنكال فزعًا على هزّات من أحد حارسيه الوفيين، كان يحذره من أن الجماهير الغاضبة في طريقها إلى القصر، وأنه أمّن له مهربًا سرّيًا، عبر سرداب القصر ومنه إلى مشارف العزبة، ثم صحراء القفر. الحارس طلب من الرئيس غندور أن يصطحب معه الحارس الثاني، وأن يتركاه ليقوم بمحاولة أخيرة لإخماد الثورة واسترجاع الحكم. وهكذا هرب غندور وحارسه، بينما بقي الآخر في البلاد.

بعدما تجاوز الصحراء، وصلت الأخبار إلى غندور عبر الأطباق البلاستيكية الطائرة تفيد بأن حارسه تولى الرئاسة، وأنه أوقع به واستغل غضب الجماهير؛ ليتخلص منه ومن الحارس الآخر.

وهكذا صار غندور بن هنكال رئيسًا مخلوعًا ومنفيًا ومطاردًا في البلاد، بعد أن رصد الرئيس الجديد مكافأة كبيرة لمَن يرشد عليه أو

يأتـي بـه حيًّا أو ميتًـا. ففر مبتعدًا عـن بلاد الحراصيد، وعبـر البلاد مع حارسـه الوحيد، إلى أن أوقعه سـوء حظه، بعد رحلة بحرية، في قبضة الأسطول اليأجوجي والمأجوجي.

ضـرب مليجي كفًّا بكف، وتعجّب من تقلُّب الأيام، وقال لنفسـه: «إن الزمن صاحب مزاج متقلّب أكثر من البكيفو».

-5-

قضى مليجي وغندور وزملاؤهما عدّة شهور في السجن، جهّزوا فيها خطة محكمة للفرار، بعد أن درسوا تحركات ومواعيد وأسلحة الجنود اليأجوجيين والمأجوجيين. الحقيقة أن الخطة كانت من تصميم غندور، المقاتل المخضرم، وحارسه الشخصي، وهو قائد عسكري مكين. فقد استطاع الزعيم الحراصيدي المخلوع إقناع أحد السجناء الجباليين بأن يعطيه بعضًا من الحجارة من يده الصخرية. وتولى الحرصودان قرضها على مدار أيام طويلة بأسنانهما، ونحتها سكاكين حادة. بُرِّدت قواطعهما كثيرًا ونبتت كثيرًا، لكنهما في النهاية كانا قد جهّزا سكاكين لكل النزلاء، كما توليا قرض الحبال عن أيدي المكبّلين.

وكانت الخطة تنص على أن يختبئ سجين من الشق وراء باب الزنزانة، مستغلًّا كونه مجرد نصف، وعندما يدخل العسكري اليأجوجي والمأجوجي المسئول عن الطعام إلى الزنزانة، سيقوم الشقي بمداهمته من الخلف وطعنه بالسكين، ومن ثم سيغادر المساجين كافة دفعة واحدة مسلّحين بسكاكينهم الحجرية، ومنذ

لحظة خروجهم من الزنزانة، سيقوم حارس غندور بن هنكال بتوزيعهم بنظام تشكيل حربي، ليتمكّنوا من تجاوز الأعداد المحدودة من عساكر المخفر، وبناء على ذلك، بعد دقائق معدودة من مغادرتهم الزنزانة، سيجدون أنفسهم خارج المخفر.

دور مليجي في الخطة لا يقل أهمية عن أدوار غندور وحارسه أو حتى الجبالي المتبرع بيده؛ لأنه سيحل الرسالة المطوية في لحيته ويبتلعها ليستدعي الحكيمة، وسيطلب منها تجهيز مجموعة من حيوان الياعور البرّي يساوي عددها عدد المساجين نفسه، سينتظرون عند سفح الجبل، ومن هناك سيمتطي السجناء حيوانات الياعور - وهي كائنات بين الخنزير البري والبيسون - وينطلقون فارّين من الجنود، قاصدين شمال أرض يأجوج ومأجوج.

وبالفعل، استدعى مليجي الحكيمة وشرح لها خطته، طلب منها تجهيز اليواعير، وطلب منها أيضًا تجهيز بُراق ينتظره، بعد سبع ليالٍ بالقرب من مرفأ المرفأ.

في البداية حضرت الحكيمة واستمعت إلى طلباته، ثم اختفت وعادت إلى بلادها لتدرس إمكانة تدبير ذلك العتاد لمليجي، وبعدها عادت مرة أخرى وقالت إن اليواعير جاهزة، أما صاحب البُراق فقد رفض تأجيره لمليجي أو أي شخص آخر، طالما أن المهام المطلوب لها ستتم في بلاد يأجوج ومأجوج. ولم يجد مليجي حلًا لذلك سوى

أن يشتري البُراق من صاحبه سحّار الحاوي، وقد طلب هذا الأخير ثمنًا غير معقول، وكان الثمن هو الحصول على رفات سنّورية من قبرها في عزبة المحروق بإمارة الكرنتينا ليستخدم عظامها في السحر والأعمال.

بعد تردد طويل، وافق مليجي على طلبات صاحب البُراق، لم تكن أمامه حلول أخرى، فوقّع مبايعة أرسلها مع الحكيمة إلى سحّار الحاوي.

وهكذا، بعد شهور من دخوله إلى سجن يأجوج ومأجوج، كان مليجي وغندور وزملاؤهما جاهزين لتنفيذ خطة الهروب الكبير.

-6-

غرز السجين الشقي المختبئ وراء باب الزنزانة سكينه في عنق العسكري اليأجوجي والمأجوجي، ومن بعدها تدفّق السجناء إلى باحة المخفر، وهناك قادهم حارس غندور بن هنكال لإبادة الجنود بالسكاكين الصخرية الحادة ولم يُقتل منهم سوى اثنين، ثم خرج الباقون ركضًا إلى سفح الجبل، ليجدوا حيوانات الياعور في انتظارهم، فامتطوها، وزجروها، فانطلقت تركض بسرعتها الكبيرة، وقبل أن يتدارك الحرس اليأجوجي والمأجوجي الأمر بعد أن دقّت أجراس الإنذار، كان السجناء قد اختفوا في الجبال المحيطة بالمدينة التحت أرضية.

أعلنت السلطات الاستنفار الأمني، لمدة يومين تعرّض فيهما السجناء الفارون لمطاردات دامية، خاصة بعد أن انتشر خبر فرارهم وقتلهم للعساكر اليأجوجيين والمأجوجيين بطول البلاد وعرضها. فتعرضوا للرمي بالسهام من مسافات بعيدة، وسقط بعضهم ميتًا، كما ضاع بعضهم في الجبل، بينما أفلت المحظوظون منهم من هذا

المصير، وتوغّلوا فوق الجبال التحت أرضية، يواصلون الهرب دون التوقّف للراحة أو لتزويد اليواعير بالطعام؛ إذ كانت الحكيمة قد ربطت جرابًا حول عنق كل ياعور، به بعض الأعشاب والمساحيق المجهولة، كان كل فارس ياعور يضعها في فم بهيمته، فتزداد سرعتها كأنها للتو بدأت في الركض.

بعد عدة أيام من الجري في الجبل، كانوا قد تأكدوا من أنهم ضللوا متعقّبيهم من جنود وعساكر يأجوج ومأجوج، وكان العدد المتبقي من كتيبة الناجين أربعة أفراد فقط: مليجي الصغير، وغندور بن هنكال، وحارسه الوحيد، والشق الذي طعن العسكري اليأجوجي والمأجوجي، حيث أصابت أسهم الحرس نصفه غير الموجود، فنجا.

وأخيرًا توقّفوا بإشارة من غندور، فردوا الخريطة وحددوا الإحداثيات. كانت مسيرة يوم واحد تفصلهم عن مرفأ المرفأ، وكانت المنطقة التي وصلوا إليها تعج بالكهوف العمودية التي تصعد حتى سطح الأرض. كان ذلك أضمن لهم، ليفلتوا به من مناطق نفوذ اليأجوجيين والمأجوجيين في جوف الأرض.

تسلق الأربعة حبلًا واحدًا، إلى قرب فوّهة الكهف، خرج الحارس أولًا، ثم غندور، ثم مليجي، وقبل أن يخرج الشق، لم تسعفه يده

الوحيدة في أن يفلت الحبل ويتشبث بصخور فوّهة الكهف العمودي، فهوى إلى قاع الكهف. وسمع الثلاثة الآخرون صوت ارتطامه بالأرض وتحطّم عظامه على الصخور الحادة.

-7-

وأخيـرًا رأى مليجي البحـر، ورأى في الأفق أبـراج جزيرة كابوريا تلوح في البعيد الأزرق، فخفق قلبه وبكى.

المفتـرض أن البُـراق ينتظـره إلـى شـرق المرفـأ حسـب اتفاقـه مـع الحكيمـة محروقـة الوجـه، وفكّـر مليجـي جدّيًا فـي اصطحاب الحرصودين الصغيرين معه إلى كابوريا؛ إذ لن يشكل وزنهما الخفيف عبئًا حقيقيًّا علـى البراق. هـمَّ بأن يقترح تلـك الفكرة علـى غندور، وعندمـا اسـتدار ناحيته ليخبره، رأى بأم عينه السـهم يخترق جمجمته من مؤخرتها ويخرج من عينه. لم يستطع الحارس أن يمنع السهم، لم يره أصلًا، أما مليجي فشهق مرعوبًا وطفق يركض صوب المرفأ، بينما وقف الحارس واشـتبك مع الجنود اليأجوجيين والمأجوجيين، الذين ظهروا بغتة من أحد الكهوف.

ركـض مليجـي بكل مـا أوتي من قـوة، قال لنفسـه إن تلك ركضته الأخيرة في هذا الجحيم، وعندما نظر وراءه وجد المقاتل الحراصيدي صامدًا ومشـتبكًا مع عدد من الجنود، لكـن هناك اثنين منهم لا يزالان يركضان وراءه.

صفّـر مليجي للبـراق، نادى عليه: «يـا براق سـحّار الحاوي اظهر وبان»، لكن البراق لم يظهر. واصل مليجي الركض حتى شـارف على المرفـأ، وبدأ بعض اليأجوجيين والمأجوجييـن البحريين يظهرون في الأفق البعيد. شـعر مليجي أنه واقع في كماشـة، من خلفه ومن أمامه، وفكّـر للحظة أن الاستسـلام هو الحل الأمثل لتجنّـب القتل، لكنه باع أفـكاره تلـك كلهـا، عندما رأى براقـه قادمًا من كبد السـماء، أشـار له مليجـي، فاسـتجاب البراق واقترب من الأرض حتى لامسـها مسـافة سـبع خطوات، كانت المسافة كافية ليقفز مليجي فوق صهوته ويحلّق معه، بينما الأسهم تتدفق من حوله.

بعد أن تجاوز البراق اليابسة، وأصبح فوق البحر. نظر مليجي خلفه، كان الحـارس الحراصيدي مقتولًا وسـط كتيبة كبيـرة من اليأجوجيين والمأجوجييـن، وجثتـه ملقاة إلى جانب جثة سـيده غندور بن هنكال، وكان قلب مليجي ينبض بهمجية.

مـال مليجي على البراق وهمـس: «إلى جزيرة كابوريا سـريعًا، ها هي هناك على مرمى البصر». أومأ البراق برأسـه وراح يقطع الأجواء، وشعر مليجي أخيرًا بالأمان، قال لنفسه: «السباحة في الهواء أكثر أمانًا من التواجد على يابسـة اليأجوجيين والمأجوجيين»، وعند هذا الحد، سـمع مليجـي أصواتًا تأتي من خلفـه، التفت، فوجـد ضابطًا يأجوجيًا ومأجوجيًا يمتطي براقًا أسود ويلاحقه.

ستة من أسهم الضابط أخطأت مليجي، إلا أن السهم السابع أصاب جنب البراق، فراح يتقافز في الهواء ويطلق صهيلًا مؤلمًا، استحلفه مليجي كي يصمد حتى يصلوا إلى المياه الإقليمية الكابورية، فيما كان الضابط اليأجوجي والمأجوجي يوالي تسديد السهام ناحيتهما.

بدأ البراق في النزيف، خفّت سرعته وراح ينخفض كأنما سيسقط في البحر، واقترب البراق الأسود من مليجي، إلا أن سهمًا بعكس اتجاه المطاردة قادمًا من ناحية جزيرة كابوريا أصاب الضابط اليأجوجي والمأجوجي، فوقع عن براقه من مسافة شاهقة وسقط في الماء، وقبل أن يطمئن مليجي لموت مطارده، كان براقه يندفع هو الآخر ساقطًا في المياه المقابلة للسواحل الكابورية.

أخيرًا.. كابوريا

-1-

لاحقًا، عرف مليجي من الممرضات أن قوات خفر السواحل الكابوري انتشلته من المياه الإقليمية، بعد أن سقط براقه ميتًا وغطس في قاع البحر. طمأنته ممرضة بشريّة إلى وجوده في مستشفى «كل الخلق» الدولي بقسم الحالات الطارئة في مدينة المخلب الأصغر، وشرحت له أنه ابتلع كمية كبيرة من المياه، وأنه كان في وضع سيئ، لكنه استقر في الأيام الماضية، وسيبدأ في التحسّن، وأن الهزال الذي يعاني منه سيتم القضاء عليه بانتظامه في تناول الأدوية والراحة التامة، وأن أسبوعًا واحدًا فقط يفصله عن الخروج من المستشفى، ثم حقنته بإبرة مخدّرة وتركته لينام ويسترد عافيته.

-2-

بعـد أيـام، كانت صحّـة مليجي قد تحسّـنت بعض الشـيء، وبات قادرًا على الذهاب إلى الحمّام دون أن يتعكّز على الممرضات.. زاره وفدٌ من وزارة الوافدين والهجرة، وطرحوا عليه بعض الأسـئلة، حول مؤهلاته العلمية وخبراته العملية، وكيفية وصوله للجزيرة رغم أنها في أخر أرض اللابوريا، وسألوه إن كان يضُمر عداوة أو موقفًا مضادًّا لأيٍّ مـن الأجناس الموجودة فـي الجزيرة كالعماليق والكرنتينيين والشـق والدلاهبة والحراصيد وحتى البشر، دوّنوا إجاباته عن عشرات الأسئلة. ثـم قدموا له ملفًا من ثلاث ورقات: الأولى «اسـتمارة تجزير»، وتعني منـح حاملها حق الإقامة فـي الجزيرة وحق العمل. والثانية «اسـتمارة تكبيـر»، نسـبة إلـى كابوريا، وتعنـي منح الجنسـية الكابوريـة لحاملي الاسـتمارة، والأخيرة «تبحير»، أي شـحن المهاجر غير الشـرعي إلى بلاده عبر البحر. قالوا له إن بياناته التي دوّنوها سيتم نقلها إلى الملف، ومن ثم سـيعقد جلسة بعد عشرة أيام مع مختص من مكتب الوافدين، وهو مَن سيحدد مصيره في استمارة من الثلاث.

-3-

استغل مليجي أيّام نقاهته في الرسم، طلب من المسئولين ألوانًا وأوراقًا، وراح يرسم صور ثبت العجائب. كان يفكّر حال حصوله على استمارة تجزير وإقامة أن يدخل إلى الجامعة، ويتخصص في أنثروبولوجي اللابوريين، وهو ما أسماه «اللابوريولوجي»، معتزمًا أن يكون أول وأمهر لابوريوليجست في الأكوان كلها، وأن يكون أبًا لهذا المبحث العلمي الفريد.

شخبط مليجي عدة صور للحراصيد والجباليين والضفدع الأخضر ونهر البكيفو، رسم أيضًا السلاحف البحرية العملاقة والدلاهبة والعميان، وخصّ الحكيمة ببورتريه.. أهدر كل الأيام وهو يرسم. وفي صبيحة اليوم الذي سيقابل فيه المختص، كان متفائلًا لعدّة أسباب، الأول هو أنه يستحق بمؤهلاته العلمية البقاء في جزيرة كابوريا، والثاني أنه لا وطن له في أرض اللابوريا ليتم ترحيله إليه. وهذه حجة قانونية تفيد موقفه أمام المختص، والمختص نفسه هو ثالث أسباب تفاؤله، إذ عيّنت له اللجنة مختصًا بشريًا، ليس دلهابًا

ولا عملاقًا. وخمّن مليجي أن الإنسان لا بد أن يتعاطف مع أخيه الإنسان.. لكن كل تلك الأفكار تبعثرت على الأرض، ولم تعد لها أي قيمة بتاتًا، عندما وصل مليجي إلى مبنى الوزارة، ورأى الموظف المختص وتعرّف على هويّته.

-4-

خيط رفيع من اللعاب سال من زاوية فم مليجي، عابرًا إلى ذقنه، دون أن يشعر به، إذ ظل محملقًا في الموظف الأسمر ذي الحلاقة الغريبة.

المختص رحّب بمليجي ووقف وراء مكتبه ليسلّم عليه، لم يخلع نظارته الشمسية الرديئة، رغم أنه يجلس في حجرة المكتب. صافح مليجي وقدّم نفسه:

- أحمد زكي.

هتف مليجي غير مصدّق:

- أعرفك بالطبع يا فنان! أنت مَن غنيت أغنية كابوريا، وأنت آخر إنسان رأته عيني قبل أن آتي إلى أرض اللابوريا.. أنا لا أصدق، ولا أفهم.. هذا غريب جدًّا، لكني سعيدٌ بك.

أشار أحمد زكي لمليجي كي يجلس، ضغط زرًّا في مكتبه فدخل الساعي، طلب منه كأسي عصير، ثم راح يراقب مليجي المضطرب، راسمًا ابتسامة طيّبة على وجهه المألوف. قال:

- أعـرف يـا أسـتاذ مليجي أنـك متفاجـئ، ولك الحـق، لكن هذه أحوال الحياة. هل نبدأ الجلسة؟

أجاب مليجي بانفعال:

- لا طبعًا، لا تبدأ الجلسة، فأنا لا أفهم يا فنّان، ما الرابط بين وجودك هنا ووجودك هناك؟ وما علاقة أغنية كابوريا بأرض اللابوريا؟

دخل السـاعي حاملًا صينية عليها كأسـا العصيـر، وضعهما بأدب جم، ثم انصرف بهدوء. قال أحمد زكي:

- بعـد فحص ملفك وقـراءة كل إفاداتك، أؤكد لك يا مليجي أنك جئـتَ إلى هنـا لأنك وصلـت إلى مرحلـة أثيرية ما، دخلـت في عالم الخفّة واضطربت ذبذبات ذاتك، فصرت أقل كثافة، وفي الوقت نفسه تسـرّبت أغنيـة كابوريا إلـى جزيئاتـك الخفيفة والمتباعـدة، فضبطت موجتـك الأثيريـة علـى إحداثيـات أرض اللابوريا فوصلـت إلى هنا. هـذا يعنـي أن مسـتقبِلاتك تعاملت مـع «الأها أها إيه» بوصفها شـفرة كونية، أو تعويذة وفقًا للسوقة والدهماء. الأغنية كانت بمثابة مصفوفة مشـفّرة من الموجات تحت الصوتية، أرسـلتك رأسًا إلى أكثر منطقة مغناطيسـية جاذبة للكثافـات في أرض اللابوريـا، وكان ذلك في بلاد الحراصيد حيث نزلت.

لم يكن مليجي يستوعبُ شيئًا، ولكنه كان يفهم في أعماقه أن أحمد زكي مسـئول بشـكل أو بآخر عن وجوده في أرض اللابوريا، ومسئول

أيضًا عن قرار بقائه في جزيرة كابوريا أو نفيه منها. لكن ذلك لم يمنعه من مواصلة أسئلته، وتأجيل الجلسة:

- لا أستطيع أن أقول إنني فهمتك بشكل كامل، لكني بدأت أجمع أطراف الخيوط. الآن عندي سؤال آخر: ما علاقة الرقم سبعة بانتقالي إلى أرض اللابوريا؟

ابتسم أحمد زكي ابتسامته الفاتنة، رشف جرعة من العصير، ثم قال:

- يا سيد مليجي أنت لمحت بعض أرقام المعادلة، لكنك لم تحل الشفرة حتى الآن.

رشف جرعة إضافية من العصير، ثم أضاف:

- ولم تحل الشفرة لأن الرقم سبعة ليس له أي دور في وجودك هنا، كانت سلسلة من المصادفات، مثلًا قلت في استمارتك إنك دخنت سيجارة واحدة من الورود السبعة للشجرة العجيبة، فلماذا لم تركز على الرقم واحد؟ قلت أيضًا إنك مررت بكل بلدان أرض اللابوريا، وقابلت عشرات المخلوقات، ولم تقابل سبعة كائنات فقط، كما أنك قابلت أربعة من الشق، وثلاثة من الدلاهبة، وحارسين لهنكال، ثم تأتي بعد كل هذه الأرقام وتتشبّث بالرقم سبعة، الذي ليس له أي دور في هذه الحكاية!

بدا الإحباط على ملامح مليجي، وقال بخيبة أمل:

- أشعر أنني خُدِعت. كنت أظن نفسي ضحية لعنة كونية مرتبطة بهذا الرقم.

رد أحمد زكي باستهزاء:

- كنت أظنك أذكى من ذلك، بنيت فرضيات وهمية حول الرقم سبعة، وتناسيت ظاهرة أخرى أكثر وضوحًا. كيف لم تنتبه يا أستاذ إلى أن البشر الذين يأتون إلى أرض اللابوريا يحملون أسماء غريبة ونادرة: مليجي، أباظة، وحتى أنا جئت إلى هنا عن دوري في فيلم كابوريا، وكنت أجسد دور شخص اسمه هُدهُد؟

بحلق مليجي، وكان يهرش رأسه، قال ببلاهة:

- والله صحيح. كيف لم أنتبه لذلك؟

سحب أحمد زكي شهيقًا طويلًا ثم زفره، بدا أنه بدأ يضيق بتساؤلات مليجي، الذي تناسى أنه في مكتب موظف حكومي، لديه قائمة بالالتزامات ومواعيد العمل. لكن، ورغم ذلك، لم ينسَ أحمد زكي نفسه أنه إنسان مثل مليجي، وأنهما من مدينتين قريبتين هناك في العالم الأصلي، لذلك قال بحسم:

- تفحّصت ملفك يا سيد مليجي، وأرى أنك لا تستحق التبحير بعيدًا، لأنه ليس لك وطن في أرض اللابوريا أصلًا، ولكنك بالمثل

لا تستحق التكبير، لأن سجلّك يقول إنك تتعاطى المخدرات ولا يجب أن يتعاطى مواطنونا الممنوعات، وبالتالي لا يبقى أمامك سوى الحصول على التجزير والإقامة.

اتّسعت ابتسامة مليجي، فقال بعد أن اطمأن على مصيره:

- شكرًا أستاذ أحمد. هذا منصف جدًّا.

ابتسم أحمد زكي، لكنه لم يختم الاستمارة، بل قام وأحكم إغلاق باب مكتبه بالمفتاح ثم عاد ليجلس على مكتبه، فتح أحد الأدراج وسحب ملفًّا صغيرًا من ورقة واحدة، ثم وجّه حديثه إلى مليجي:

- هذا الإجراء لا أقوم به إلا مع مَن أحبهم وأرتاح لهم. ركّز معي يا سيد مليجي. إلى جانب استمارات التبحير والتجزير والتكبير، هناك استمارة رابعة اسمها «التدوير» أي السفر عبر المدارات والاستدارة إلى حيث المصدر الأصلي، وتخوّلنا هذه الاستمارة أن نعيد البشر القادمين من عوالم أخرى إلى عالمهم الأول. نفعل ذلك إن اختار هؤلاء البشر العودة إلى دنياهم.

مد أحمد زكي يده بالاستمارة وقدّمها إلى مليجي، وقال:

- سأمهلك أسبوعًا إضافيًّا لتفكّر في الأمر.

-5-

قبل أن ينقضي يوم واحد، كان مليجي قد حسم قراره. في المساء اتصل بأحمد زكي في مكتبه وأخبره أنه اختار التدوير، وأنه مشتاق للحياة الأولى ولأصحابه ومعمله وكل تفاصيله القديمة. رد عليه أحمد زكي بقراءة كل بنود الاستمارة، وسمعها مليجي كلها، ووافق عليها.

اتفقا على الالتقاء عند المغيب، بعد أسبوع، أمام المسرح الرئيسي للمدينة، ومن هناك سيدبر له أحمد زكي الطريقة التي سيدوّره بها.

-6-

فكّر مليجي هل ستنتقل رسومه معه، أم سيرجع وحده إلى هناك؟ حيّره الأمر، وحاول أن يتذكر من بنود الاستمارة أي مادة تشير إلى أحقيته في شحن أمتعته، لكنه لم يصل إلى شيء. اتصل بأحمد زكي وسأله، إلا أن رده كان محبطًا؛ لأن العودة تخص الإنسان فقط. لكنه لم يكترث كثيرًا، قال لنفسه: «سأعيد رسمها هناك»، وراح يراجع التصاوير والرسوم لتنطبع في ذهنه.

الفترة المتبقية حتى موعده مع أحمد زكي، قضاها مليجي في الترفيه عن نفسه، زار الشواطئ السياحية، وسهر في حانات الحراصيد حيث الكحوليات المصنوعة من البصل، وارتاد سباقات الأباشير لقنص الفرائس. دخل السينما وتفرّج على أفلام أنتجتها السلاحف البحرية عن الحياة في قاع البحر، وارتاد المقاهي الجبالية التي تقدم فناجين الصخر المبشور الساخنة.

كان مليجي يودّع كابوريا التي أحبها رغم إقامته القصيرة فيها. فزار ممرضاته، وحرص كذلك على زيارة دور العبادة والدعاء بالمغفرة لسنّورية والبُراق، وكل مَن عاونه في الوصول إلى الجزيرة الواقعة في أقصى شمال أرض اللابوريا.

-7-

في الموعد المحدد كان أحمد زكي يقف أمام المسرح، مرتديًا بنطالًا أسود مهلهلًا، وفانلة بيضاء ونظارة شمس. لاحظ مليجي أنها الملابس ذاتها، التي ظهر بها في أغنية كابوريا.

دعاه أحمد زكي إلى وجبة غداء، وبعد أن فرغا منها، سأله إن كان جاهزًا، فأومأ مليجي برأسه. اصطحبه أحمد زكي عبر شبكة طويلة من الممرات هي كواليس المسرح، مشيا كثيرًا إلى أن وجد مليجي نفسه فجأة يتوسط المسرح مع أحمد زكي، وأمامهما، كانت أعداد غفيرة من الجماهير بكل الأجناس.

ميكروفون انبثق في يده فجأة، لم يتنبّه كيف ظهر، وأمسك أحمد زكي بميكروفون آخر. وما إن بدأت الموسيقى حتى ارتفعت صرخات الجماهير، وراح المسرح يتلوّن بالأحمر والأزرق والأصفر والأخضر. كرنفال ألوان كان يتراقص حول مليجي الواقف مشدوهًا على المسرح، بينما إلى يساره، يتمايل أحمد زكي مع إيقاع الموسيقى وصرخات الجماهير.

قال أحمد زكي:

- اترك نفسك للإيقاع.. وغنِّ معي!

ثم طفق الكورال يغني من الخلفية:

- الأها أها إيه.. أها إيه

واندلقت الأغنية على لسان مليجي الصغير وعلى شفتيه، لا يعرف إن كان يغنيها، أم إنها هي التي كانت تغنّيه، وشاركه أحمد زكي الغناء والتمايل:

«أنا في اللابوريا.. الأها أها إيه

في إيه هنبكي عليه؟ الأها إيه

أموت في الفوريا.. الأها أها إيه

ليلي ونهاري يا بيه.. الأها إيه

صيّاد كابوريا.. الأها أها إيه

واص.. إصطادوني يا بيه.. الأها إيه

صيد الكابوريا.. الأها أها إيه

كيفي ولا يُعلى عليه.. الأها إيه

أزأز كابوريا أزأز كابوريا

لو أزأزوني هأزأز إيه؟

عند هذا الحد من الأغنية.. تلاشى مليجي من أمام الجمهور، وسقط ميكروفونه على خشبة المسرح.

البيـت

ثَبْتُ الكائنات العَجِيبة

علـى كنبته الوثيرة، وأمامِ الطاولة الرخامية السـوداء، وجد مليجي نفســه راقدًا، صداع خفيف يرن في النصف الأيمن من رأســه، وعقب سـيجارة وردة الشـجرة العجيبة لا يزال نائمًا بين سبّابته ووسطاه، فيما بدأ التلفزيون أمامه بثّه الصباحي بالنشيد الوطني ثم نشرة الأخبار.

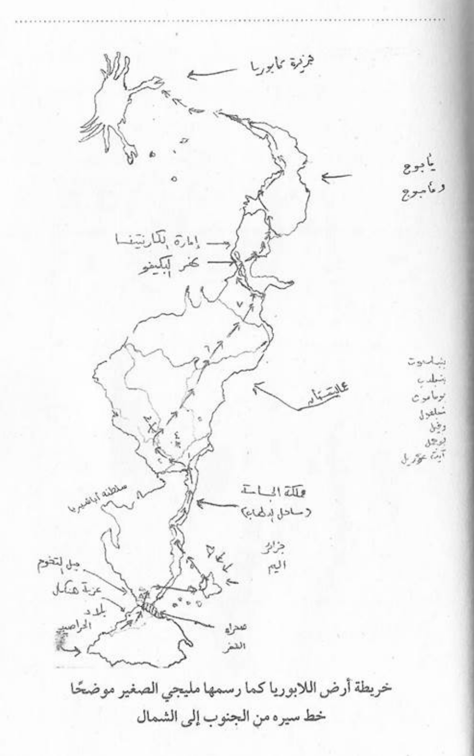
مليجي حاول اسـتعادة الحلم العجيب الذي رآه، لكنه اكتشـف أنه أكبـر من أن يُسـترجع على دفعة واحدة. سـأل نفســه إن كان ما عاشــه حقيقـة وواقعًـا أم مجـرد أضغاث أحـلام من تأثير سـيجارة الشـجرة العجيبـة. أخذتـه الحيرة، مثلًا، شـعر مليجي باشـتياق عـارم إلى علي علـي، وكأنما لـم يره بالفعـل طيلة شـهوره فـي أرض اللابوريا، لكن بالمثل كانت السـاعة أمامه والروزنامة على الحائـط، تؤكّدان له أن ما مر من وقت كان ساعات الليل ليس إلا.. كيف يجلس في بيته ولا يزال قلبه مشـطورًا على سنّورية؟ سأل نفسه. كان إحساسًا بالامتنان يتملّكه أيضًا تجاه كل رفاق دربه من جنوب اللابوريا إلى شـمالها: غندور ابن هنـكال، لازورد ولد صـوّان، زمردة بنت صخر، نُمير آل ببر، سـنّورية آل ببـر، أباظـة، جُعلـص بنبلحوت وابنـه بَق بَق، سـعدان آيت غوريل

وابنـه سَبَلوه، الحكيمة المحروقـة، عنكروب الشـائه، حارس غندور ابـن هنـكال مجهـول الهويّـة، قطيـع اليواعير البرّيـة، السـمندر الذي صـادره ضبّـاط يأجوج ومأجـوج، والبُراق الشـهيد. شـعر مليجي في تلك اللحظة، بأنه شـاخ عشـرين سنة بسببب سـيجارة الشجرة العجيبة والغفوة الطويلة. شـعر أيضًا أن كل هؤلاء سيبقون محشورين في قلبه إلـى الأبـد؛ إذ كان حضورهـم داخله يـوازي حضور علي علي وشـلّة المقهى. خاطر مر في نفسه وقال له إن كليهما واقع.

رنّ هاتفـه، كان علـي علـي، رد عليـه مليجي واعتذر عـن الموعد المهـدر. شـعر أن صـوت صاحبه غريـب وآتٍ من بُعدٍ آخـر، وأن لغة أخرى هي التي كانت تسكن أذنيه حتى وقت قريب.

اتفقـا علـى أن يلتقيـا مسـاءً فـي المقهى. وقـرر مليجي اسـتغلال الوقـت حتى المسـاء، فذهـب إلى المعمـل، ألقى نظرة على الشـجرة فوجدهـا كمـا كانت. مـن أحـد الأدراج أخرج دفتـرًا صغيـرًا، ثم عاد إلـى الطاولة الرخامية السـوداء في الصالون. فـي الصفحة الأولى من الدفتر كتب: «ثبت بالكائنات العجيبة التي قابلتها في أرض اللابوريا.. وتوثيـق وتكريـم لأبطالهـم وشـهدائهم فـي رحلـة كابوريـا.. تأليف: مليجـي الصغيـر»، وعلى الغـلاف الخارجي كتب بخـط أكبر: «أنا في اللابوريا».

ثم فتح الدفتر، وبدأ يدوّن...



خريطة أرض اللابوريا كما رسمها مليجي الصغير موضحًا
خط سيره من الجنوب إلى الشمال



" في تلك اللحظة بالذات، انبثقت الفكرة في رأسه مثل خرّاج: لماذا لا يستثمر خلفيته العلمية في تخليق تركيبة ما تعمل على تنميل الدماغ، وتشعير اليافوخ، تلعب في كيمياء الجسد، وتمزج المزاج؟ في أقل من دقيقة، كان قد أحضر ورقة وقلمًا ودوّن قائمة مبدئية بالعناصر، التي سيمزجها ليصل إلى توليفته السحرية "

***

نحن أمام رواية تمتزج فيها عوالم البشر وغير البشر ، مكونة ذلك العالم السحري الرائع بكل آفاق الخيال الرحبة من بلاد لم يسمع بها أحد، وأسماء لم تألفها أذن من قبل، آخذة من الواقع كل قيمه النبيلة وأخلاقياته السامية؛ لتشكل في نهاية الأمر " جزيرة كابوريا " أو ما أطلق عليه المؤلف " بلاد كل الخلق " ..



أحمد مجدي همام (1983) روائي وقاص وصحفي مصري، يعمل بالصحافة الثقافية منذ 2010، شغل منصب مدير تحرير مجلة "عالم الكتاب"، ومراسل "الحياة اللندنية" و"القدس العربي" من القاهرة. أصدر عدّة روايات، منها: "أوجاع ابن آوى" و "عيّاش" والمجموعة القصصية "الجنتلمان يفضّل القضايا الخاسرة"، التي حصلت على جائزة ساويرس 2016 لأفضل مجموعة قصصية.

9 789777 951371

الدار المصرية اللبنانية